أبو السلاسل ـ أم الدويس ـ بني كلبان وقصص أخرى

الكتاب: أبو السلاسل ـ أم الدويس ـ بني كلبان وقصص أخري (خسوف)
المؤلف: حميد عقبي
النّاشر: دار الدّراويش للنّشر والتّرجمة- بلوفديف- بلغاريا
Дервиши

العدد: ١٣٤٦
الطبعة الأولى يناير ٢٠٢٥
١٨٠ص؛ ٢١× ١٤ سم.

الكتب والدّراسات التي تصدرها الدّار إنما تعبّر بالضرورة عن آراء ووجهات نظر واجتهادات أصحابها، ولا تمت لرأي الدّار بأي صلة.

تم الإيداع في المكتبة الوطنية صوفيا بلغاريا : ٢٠٢٥

(ISBN) (ردمك) الورقي 978 - 3 - 98529 - 013 - 0
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي: بدر السويطي.
الصفّ الضوئي والإخراج الداخلي: محمود عنتر
فرز الألوان والتنفيذ الطباعي: دار الدراويش للنشر و الترجمة
المدير العام: بدر السّويطي

للتواصل:
الدّراويش للنّشر والتّرجمة
daraldarawesh@gmail.com
هاتف: 00359876691445، ص.ب: 4210
شارع تورغوفسكا رقم ٧- ستامبوليسكي- بلوفديف- جمهورية بلغاريا.

© كافة حقوق النّشر، الطبع والاقتباس محفوظة، عدا حالات المراجعة والتّقديم والبحث والاقتباس العادية ذكرًا للمصدر؛ فإنه يحظر إعادة إصدار، نسخ، تصوير، ترجمة أو اختزان -ورقيًا أو إلكترونيًا- أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها في نطاق استعادة المعلومات -سواء كانت تصويرية، إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التّسجيل الفوتوغرافي أو التّسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة وغيرها-، دونما الحصول على تصريح خطي مسبق من النّاشر والإشارة إلى المصدر.
وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع -دون موافقة كتابية- يعرّض صاحبه للمساءلة القانونية.
*تباع النّسخة إلكترونيًا عبر موقع الدّار.

أبو السلاسل ـ أم الدويس ـ بني كلبان وقصص أخرى

سرديات (١٣) قصة تتشابك
مع شخصيات خرافية وأسطورية من
دولة الإمارات العربية المتحدة واليمن وفرنسا

حميد عقبي

©
الدّراويش للنشر والتّرجمة
AL-DARAWESH FOR PUBLISHING & TRANSLATING
WWW.DARAWESH.COM

بلوفديف -جمهورية بلغاريا
Plovdiv-Bulgaria
2025

الإهداء

إلى كلِّ المدنِ التي تحاولُ الهروبَ إلى الحُلمِ في زمنِ الرعبِ والخوفِ.

كلمة شكر وتقدير

الناشر الأديب بدر السويطي ودار الدراويش للنشر والترجمة.

شكرٌ خاصٌ إلى الأصدقاء الأعزاء الذين تعاونوا معي في التدقيق اللغوي وتناقشت معهم عن هذه القصص، وأخصُّ بالذكر:

الأديب السوري صبري يوسف، الكاتب الناقد التونسي سمير بية، الناقد اليمني د. حاتم الشماع، والشاعر والناقد اليمني د. أحمد الفلاحي.

أبو السلاسل ـ أم الدويس ـ بني كلبان وقصص أخري

سرديات (13) قصة تتشابك مع شخصيات خرافية وأسطورية من دولة الإمارات العربية المتحدة واليمن وفرنسا.

حميد عقبي

عناوين النصوص (أبو السلاسل ـ آلسِعْلاة ـ النمنم ـ غافة الشهبانة ـ الجزيرة الحمراء ـ أم الدويس ـ بني كلبان ـ جمل العقبي ـ أبو كيس ـ القط بوبا ـ حالة ـ لا شيء ـ ديونيسوس).

أبو السلاسل

تمطِّرُ بغزارةٍ غريبةٍ وكأنَّها ستمطِّرُ لآخرِ مرةٍ. تقتربُ الساعةُ من الرابعةِ صباحًا. أعودُ مع عروستي (راشيلْ) ونحنُ نحملُ هدايا الأصدقاءِ والصديقاتِ بمناسبةِ زواجنا.

توقفت سيارةُ (رفائيلْ) مقابلَ عمارةِ سكننا قربَ (محطةِ مونبارناسْ). نسكنُ بالطابقِ الرابعِ والأخيرِ في عمارةٍ تبدو قديمةً، لا يوجدُ مصعَدٌ ويظهَرُ علينا الإرهاقُ بسببِ هذهِ الحفلةِ التي لم نعتقِدْ أنها ستمتدُّ إلى هذا الوقتِ.

جَمَعَ (رفائيلْ) كلَّ الهدايا في ثلاثةِ أكياسٍ بلاستيكيةٍ وتبرَّعَ بحملِها إلى عتبةِ البيتِ. أمسكُ بيدِ (راشيلْ) وأخافُ عليها من التزحلقِ. الإضاءةُ ضعيفةٌ جدًّا في هذهِ المنعطفاتِ الدرجيةِ الضيقةِ. نصِلُ إلى بابِ الشقةِ بسلامٍ، يضعُ (رفائيل) الأكياسَ الثلاثةَ عند عتبةِ البابِ، ثمَّ ودَّعنا وغادر. بعد لحظاتٍ، سمعنا بعضَ الضجيجِ وشعرنا أنه تزحلَقَ، ناديتهُ.

سألتُهُ: سلاماتْ صديقي؟

يبدو أنه نهضَ وتابعَ نزولهُ وكأننا سمعنا صوتَهُ يقولُ لنا: لا داعي للقلقِ، لا يقَعُ إلا الشاطر.

مـع دخولِنا الشـقةَ ثـم دخولِنا غرفةَ النـومِ، أسرعَتْ (راشـيلْ) بفتحِ الأكياسِ وهيَ لا تزالُ بفستانِ العرسِ الأبيضِ. وضعتْ الهدايا على سريرِ النـومِ وبـدأتْ تطلُبُ مني مشـاركتها فتحَ المظاريفِ والعلـبِ والكراتينَ الصغيرةَ.

فضَّـلَ الأصدقاءُ عدمَ كتابةِ الأسـماءِ على الهدايا. كانـت بعضُها قناني عطرٍ، والمفاجأةُ أنَّ أحدَ الأصدقاءِ أهدى لنا رحلةَ أسبوعِ عسلٍ إلى مدينةِ (الشـارقةِ) بالإماراتِ، وتشملُ تذاكرَ الطيرانِ وحجزًا بشقةٍ مفروشةٍ مع كوبوناتِ مطاعمَ وتسوقٍ صالحةٍ للاستخدامِ في أسواقِ الشارقةِ.

قفزَتْ (راشيلْ) تعانقني وتقبِّلني وتدعوني للرقصِ رغمَ تعبِها بسببِ هـذهِ الحفلـةِ الطويلـةِ الصاخبةِ. بقيتُ مندهشًـا لهـذهِ المصادفـة الجميلةِ. أكملَتْ (راشيلْ) فرحتَها الطفوليةَ

وهزَّتني فقد تجمَّدتُ للحظاتٍ.

خاطبتنـي وصوتُهـا يعلـوهُ الفـرحُ: أنتَ كنـتَ تنتظرُ دعـوةً أو فرصةً لتسافرَ إلى الإماراتِ وتستكملَ بحثَكَ عن الخرافاتِ والحكاياتِ الشعبيةِ في هذا البلدِ. انظرْ، سفرُنا سيكونُ غدًا في مثلِ هذا الوقتِ، الرابعةِ صباحًا.

أخلَـتْ (راشـيلْ) السريرَ مـن كلِّ الهدايـا ووضعتْ محتويـاتِ ظرفِ السـفرِ إلى (إمارةِ الشارقةِ) بحقيبتها. سارعتْ لتضُمَّ إليهِ جوازاتِ سفرنا وكأننا سنتحرَّكُ إلى المطارِ بعد لحظاتٍ. بدأتْ تُفكِّرُ ببرنامجِ الغدِ.

تتحدثُ بصوتٍ مسموعٍ وتقولُ: يكفي أنْ ننامَ إلى الظهيرةِ، ونتناولَ الغداءَ في أحدِ المطاعمِ القريبةِ، ثمَّ نعودُ لترتيبِ ما نحتاجُهُ للسفرِ. لنأخذِ الأشياءَ الضروريةَ فقط، ولدينا كوبوناتٌ كثيرةٌ للتسوقِ من الشارقةِ ودبي وأبو ظبي، لا ننسى كاميرا التصويرِ. سوفَ نغادرُ وباريسُ تُمطِرُ، وقدْ نعودُ والمطرُ لا يزالُ يهطِلُ. فرصةٌ رائعةٌ في نعيمِ الشمسِ والبحرِ، ولا تنسَ أنه يجب أنْ نزورَ البادية ونركبَ الجملَ ونبيتَ في خيمةٍ تحت السماءِ المُرصَّعةِ بالنجومِ، ويمكننا أنْ نظلَّ لعدةِ أيامٍ إضافيةٍ.

كنتُ أسمعُها وخيالي يذهبُ إلى البعيدِ معَ شخصياتٍ خرافيةٍ قرأتُ عنها مثل (حمارةِ القايلةِ)، (الطنطلْ)، (بابا درياهُ)، (السلعوة)، وكذلكَ (أبو مغوٍي) و(عثيونْ)، وأكثرهمْ رعبًا وبشاعةً (أبو السلاسلِ).

كأنَّ هذهِ الرحلةَ التي لم أخططْ لها الآنِ دعوةٌ للقاءِ كلِّ هذهِ الوجوهِ. هذهِ الشخصياتُ تشبهُ شخصياتٍ خرافيةً عديدةً في التراثِ اليمنيِّ، وربما أنَّ كلَّ الشخصياتِ الخرافيةِ في العالمِ من شرقِهِ إلى غربِهِ ومن شمالِهِ إلى جنوبِهِ تتشابهُ أوْ تتشاركُ ببعضِ الملامحِ والصفاتِ. وبحثي عنْ هذهِ الخرافاتِ منْ أجلِ توظيفها في عملٍ روائيٍّ أوْ مسرحيٍّ، هيَ شخصياتٌ مثيرةٌ للخيالِ قديمًا. لم أكنْ أفكرُ بمجردِ جمعِ تدوينِ ما كتبتُهُ عنها، وأكادُ الآنَ أتخيلُها ستنتظرني في المطارِ وستحدثُ أشياءٌ تتجاوزُ الواقعَ.

إنها ليلةُ عرسِنا، ليلةُ الدخلةِ، وكنتُ أتخيلُ أنها ستكونُ مميزةً. بدأتْ (راشيلْ) تخلعُ فستانَ العرسِ وتزيلُ المكياجَ وتلبسُ شميزًا ليليًّا جعلها تبدو كحوريةِ البحرِ الأنيقةِ. تحركتُ لخلعِ ملابسَي والتحررِ من ربطةِ العنقِ ولبستُ بيجاما جديدةً. نسيتْ (راشيلْ) التعبَ وفتحتْ دولابَ الملابسِ كأنها تريدُ أنْ تختارَ ما ستأخذُهُ للسفرِ. ظلَّتْ تُحدقُ بدولابِ الملابسِ وكأنها غائبةٌ عن هذا الكونِ. اقتربتُ منها ولمستُ كتفَها الأيمنَ ثم الأيسرَ، ثم استدرتُ أمامها وهيَ لا تزالُ جامدةً.

همستُ لها برفقٍ: حبيبتي، حبيبتي.

كأنها أفاقَتْ من غيابِها وبدَتْ مستغربةً، بقيَتْ تردِّد: لماذا بقيتُ متسمِّرةً أمامَ دولابِ الملابسِ؟

أحببتُ أن نخرجَ من هذا الجوِّ وبدأتُ أتقرَّبُ منها بملامساتٍ لطيفةٍ. أبدَتْ أسفَها ودعتني إلى نومٍ هادئٍ لنكسبَ الوقتَ لأن أمامنا رحلةَ سفرٍ طويلةٍ. بعد عناقاتٍ لطيفةٍ، نمْنا بهدوءٍ وسلامٍ رغمَ ما يُحدِثه هطولُ المطرِ في الخارجِ من ضجيجٍ.

صحونا نهايةَ الصباحِ وبدأنا نتذكرُ حديثَنا قبلَ النومِ، وكان حديثُنا عن السفرِ إلى (إمارةِ الشارقةِ) أشبهَ بحلمٍ مشتركٍ راودَنا في منامِنا. سارعتْ (راشيلْ) بالبحثِ في حقيبتها ووجدَتْ تذاكرَ السفرِ والحجزَ

الفندقـيَّ وكلَّ شيءٍ. ضحكَـتْ مـن نفسِـها ومنـي وبـدأتْ تسـتعيدُ كلَّ نقاشاتِنا قبلَ النومِ.

بدأَتْ تحضُرُ في ذهني كلَّ الشـخصياتِ الخرافيةِ، وأشعرُ بشيءٍ غريبٍ وكأنهـم جميعًـا هنا يختبئونَ من مطـرِ باريس الذي لا يتوقَّـفُ. ذهبتُ كي أحضِّرَ القهوةَ والفطورَ لعروستي (راشيلْ)، وهي دخلَتْ لتستحمَّ وتجهِّزَ نفسَـها، وتذكِّـرُني أنَّ أمامنـا إلى منتصـفِ الليلِ حيثُ يجـبُ أن نصلَ إلى المطارِ.

لدينا 12 سـاعةً لفعلِ كلِّ شيءٍ. عرسُـنا كان بعيدًا عن أهلِنا، يسـكنُ أهلي في اليمنِ، ويسكنُ أهلُها في قريةٍ ساحليةٍ قربَ مدينةِ (نيسْ)، لكنَّهم لم يكونوا يُحبِّذونَ أن تصلَ علاقتُنا أنا و(راشيلْ) إلى زواجٍ رسميٍّ. وجدنا دعمًا من أصدقاءٍ وصديقاتٍ، وأقاموا لنا حفلةً جيِّدةً، والأكثر دهشةً هي هديةُ السـفرِ التي لم نتوقَّعها، وسـتكونُ مناسبةً جيدةً لنا للهروبِ من هذا المطرِ المستمرِّ بالهطولِ منذ يومينِ أو ثلاثةٍ؛ لم أعدْ أتذكرُ متى بدأَ هطولُه.

أعددتُ القهوةَ وإفطارًا بسـيطًا. أخذتْ رشـفاتٍ من القهوةِ ودخَّنتْ سـيجارتي الأولى، ثم توجهَتْ لأخذِ «دوشْ»وتجهيزِ نفسِها سريعًا. رأيتُ (راشيلْ) تبدأُ بتجهيزِ ملابسِنا، دعوتُها أن تشربَ قهوتَها وتتناولَ فطورَها.

عانقَتْني معانقـةً سريعـةً وتوجَّهـتْ إلى المطبخِ. دخلتُ للاسـتحمامِ،

انهمرَ الماءُ فوقَ جسدي. وضعتْ الكثيرَ من الشامبو وفركْتُ رأسي، فجأةً توقَّفَ هطولُ الماءِ وبدأتُ أسمعُ خريرًا وقرقعةً تأتي من مواسيرِ الماءِ. هنا يُسمَعُ صوتُ هطولِ المطرِ بوضوحٍ.

أغلقتُ وأعدتُ فتحَ حنفيَّةَ خرطومِ الماءِ. هطلَتْ دفعةٌ من الماءِ الأسودِ، ثم تحوَّلَ لونُ الماءِ إلى الأحمرِ، ثمَّ الأصفرِ، وبعدها عادَ لونُ الماءِ طبيعيًّا. سارعتُ بالخروجِ بعد أنّ أنهيتُ غسلَ بقايا الماءِ الأسودِ. لأنّ العمارة قديمةٌ، فقد تحدثُ بعضُ المفاجآتِ. لم يُعجبنا هذا السكنُ ولكننا اضطررنا إلى استئجارِه لرُخصِ الإيجارِ ووجودِه في وسطِ باريس، فمحطَّةُ (مونبارناسْ) من المحطَّاتِ النشطةِ، وهي لا تبعدُ عن سكنِنا.

عدتُ لمشاركةِ (راشيلْ) الفطورِ ولمْ أخبرها بما حدثَ لي قبلَ قليلٍ، (راشيلْ) امرأةٌ في بدايةِ الثلاثينياتِ، وهيَ معلمةُ اللغةِ الفرنسيةِ بأحدِ مراكزِ تعليمِ اللغةِ الفرنسيةِ للأجانبِ.

علاقتنا بدأتْ منذُ سنواتٍ وحدثَ التوافقُ والحبُ، وتكلّلتْ العلاقةُ بسكنٍ مشتركٍ ثمَ بالزّواجِ. هيَ تحبُ الثقافاتِ المتعددةَ وبدأتُ منذُ بدايةِ علاقتنا أعلمها اللغةَ العربيةَ وكنتُ بمثابةِ نافذتها على العالمِ العربيِّ، وخاصّةً (اليمنَ) و(الخليجَ العربيَّ). أحكي لها عنْ حضارةِ اليمنِ وعن الجزيرةِ العربيةِ والخليجِ. منذُ أكثرَ منْ عامينِ وأنا أكرّسُ الكثيرَ منَ الوقتِ للأدبِ الشعبيِّ وتستهويني الحكاياتُ الشعبيةُ.

كانتْ أمنية (راشيلْ) أنْ نقضيَ شهرَ العسلِ في اليمنِ، ولكنْ بسببِ ظروفِ اليمنِ المعقدّةِ فقدَ أجَّلنا السفرَ إلى أجلٍ آخرَ عندما يتحققُ السلامُ والأمانُ.

هذهِ الرحلةُ ستكونُ مهمةً جدًا لها، وسترى بعضَ ما كنتُ أحكيه لها عنْ هذهِ المدنِ والبلدانِ. كنا كمنْ يسابقُ الزمنَ لنرتبَ بعضَ الأمورِ المهمةِ، وأرسلنا إلى الأصدقاءِ والصديقاتِ رسالةً على جروبِ واتسابٍ مشتركٍ، شكرناهمْ جميعًا على دعمهمْ، وأخبرناهمْ أننا سننقطعُ عنْ التواصلِ معهمْ مدةَ أيامِ العسلِ والتي قدْ تدومُ لأسبوعينِ، وربما أكثرُ قليلاً.

بدتْ (راشيلْ) نشطةً ودفعتني للخروجِ في هذا الجوِّ الممطرِ لشراءِ بعضِ الأشياءِ والذهابِ إلى الصيدليةِ لشراءِ ما يلزمنا. كنتُ أظنُّ أنَّ يومنا الأولَ كمتزوجينَ سيكونُ ذو نكهةٍ وطقوسٍ خاصةٍ، ركضنا تحتَ المطرِ لساعاتٍ، وأكملنا كلَّ شيءٍ. عدنا بحدودِ الخامسةِ بعدَ الظهرِ وأمامنا بحدودِ ستِّ ساعاتٍ لنتوجَّه إلى المطارِ.

ظلتْ طوالَ الوقتِ تطرحُ الأسئلةَ حولَ دولةِ الإماراتِ العربيةِ المتحدةِ، وخاصةً (مدينةَ الشارقةِ)، وما يجبُ أنْ تلبسهُ وتأخذهُ معها. أحاولُ طمأنتها فالشارقةَ مدينةٌ منفتحةٌ وعصريةٌ، ولا شيءَ يدعو إلى القلقِ.

أعددنا بعضَ الحقائبِ ولمْ نستطعْ الخروجَ للغداءِ في المطعمِ المجاورِ، فهذا المطرُ المتدفقُ لا يشجعُ على الخروجِ.

مضى الوقتُ بسرعةٍ، ووصلتْ التاكسي التي طلبناها. انطلقنا إلى المطارِ في جوٍّ ممطرٍ، عاصفٍ، وطريقٍ مزدحمٍ، وكأنَّ أهلَ باريس سيتركونها بحثًا عنْ مدينةٍ لا تمطرُ بهذهِ الغزارةِ. وصلنا المطارَ، وسارتْ الأمورُ على ما يُرامُ. ثمَّ صعدنا الطائرةَ، وبدا القلقُ ينتابُ (راشيلْ) بسببِ تأخرِ الإقلاعِ لأكثرَ منْ نصفِ ساعةٍ دونَ معرفةِ الأسبابِ، ولكننا فهمنا أنَّ السببَ هوَ هذا الطقسُ الغريبُ.

نامتْ (راشيلْ) معَ تحليقِ الطائرةِ في الجوِ، أسندتْ رأسها على كتفي. فتحتُ جهازَ اللابتوبِ وعدتُ لقراءةِ ما كنتُ أدوّنهُ عنْ هذهِ الشخصياتِ الخرافيةِ. سادَ الصمتُ وغطَّ أغلبُ الرّكّابِ في نومٍ عميقٍ.

شعرتُ بالوحدةِ والصمتِ والسكونِ، جاءني إحساسٌ وكأنهمْ جميعًا هنا معي في هذهِ الطّائرةِ أو أنّهمْ ينتظرونني في المطارِ، وكأنّهمْ يتهامسونَ ويقولونَ: أهذا الرَّجلُ سيجمعُنا منْ أزمنةٍ متفرقةٍ منْ غياهبَ المجهولِ والنسيانِ؟

قبلَ ساعةٍ واحدةٍ منْ قربِ وصولنا إلى مطارِ الشارقةِ الدولي، حدثَ شيءٌ لا يُصدّقُ. تعرّضتْ طائرتنا لمطبّاتٍ هوائيّةٍ مفزعةٍ. بدأتْ المطباتُ

عاديّـةً ثـمَّ زادَ عنفها، وعـمَّ الفزعُ والهلـعُ ووصلَ حدُ الـصّراخِ. نهضتْ (راشيلْ) وظلّتْ متمسّكةً بي وبدأتْ تودّعني وتردّدُ: ربّما ستكونُ نهايتنا، وأنا أحبكُ.

بقيـتُ كالأخرسِ وشـبهَ مشـلولٍ. ربطنا أحزمـةَ الأمـانِ وبقينا في يدِ القـدرِ، تأرجحـتْ الطائـرةُ ذاتَ اليمـينِ وذاتَ اليسـارِ، ويبـدو أنَّ قائـدَ الطائرةِ بدأَ ينادي ويستغيثُ.

أغلقتُ جهازَ اللابتوبِ، لحظتها اختفتْ وشوشـاتُ تلكَ المخلوقاتِ الخرافيـةِ. وبعـد دقائـقَ قليلةٍ عـادَ السّـكونُ والهـدوءُ، وأصيـبَ الجميعُ بالدّهشةِ، فقدْ كنّا على وشكِ السّقوطِ والموتِ.

جـاءني شـعورٌ بأنَّ لهذهِ المخلوقاتِ يدًا فيما يحـدثُ. عدتُ لفتحِ جهازِ اللابتوبِ، فعادتِ الفوضى تعصفُ بطائرتنا.

سارعتُ إلى غلقهِ وجسدي يرتجفُ.

عـادتِ الطائـرةُ لمسـارها الطبيعيِ. ومـعَ وصولنا إلى مطارِ الشـارقةِ، وجدنا أطباءً وسـيّاراتِ إسـعافٍ في اسـتقبالنا، وأعلنتْ شركـةُ الطيرانِ منحنا أسبوعَ ضيافةٍ على حسابها، وأنْ تعادَ إلينا ثمنُ تذاكرِ السّفرِ. بالغتْ شركـةُ الطيرانِ في إكرامنا والاعتـذارُ عمَّا حدثَ، وأُجريَ فحصٌ شـاملٌ للطائرةِ.

بـدتْ (راشـيلْ) مـسرورةً لوصولنـا وحصولنـا عـلى أسـبوعٍ إضافيٍ والكثيرِ منْ كوبوناتِ التسوّقِ والمطاعمِ.

تمَّ تخصيصُ تاكسي فخمةٍ لتقلنا إلى الفندقِ. لمْ أخبرْ راشيلْ بموضوعِ فتـحِ اللابتـوبِ. راجعتُ نفسي وحاولـتُ الاقتناعَ بأنَّها مجـرّدُ مصادفاتٍ حدثتْ. وصلنا إلى شقتنا الجيّدةِ جدًا والجميلةِ بديكوراتها التراثيّةِ. تميّزتْ بوجودِ مرآةٍ ضخمةٍ وبإطارٍ قديمٍ تراثيٍ تزينُ جدارَ صالةِ الشقّةِ.

شـعرتُ بإحسـاسٍ غريبٍ، وكأنَّ المخلوقـاتِ الخرافيةَ ليسـتْ بعيدةً عنَّا، وخاصّةً كلّما اقتربتُ منْ هذهِ المرآةِ العجيبةِ.

أشـعرُ الآنَ بهمْ، بهمسـاتهمِ الخفيّةِ والخافتةِ. اغتسلنا منْ تعبِ السّفرِ، ثمَّ نزلنا لتناولِ العشاءِ في مطعمِ هذا المجمّعِ السّياحيِ قربَ البحرِ. رافقنا المطرُ، وظلّتِ السّماءُ تمطرُ مطرًا خفيفًا. للمطرِ هنا جمالياتُهُ الأنيقةُ، ويزرعُ فرحهُ الخاصَّ.

صعدنا إلى سـكننا بعدَ تناولنا العشـاءَ وتذكّرنا أننا عرسانٌ جددٌ وإلى هـذهِ اللّحظةِ لمْ نـمارسْ الحبَّ كأزواجٍ. طلبتْ مني (راشـيلْ) تأجيلَ هذهِ الرغبةِ لنفتحَ مِنَ الغدِ صفحةَ رغباتنا ونفعلَ ما نريدهُ.

نامـتْ (راشـيلْ) كطفلـةٍ جميلـةٍ وبقيتُ أداعبُ شـعرها وهيَ تبتسـمُ وتدعـوني أنْ أسـتمرَ بهـذا الفعـلِ. نمـتُ بعدهـا ربّما لسـاعةٍ واحـدةٍ ثمَ صحوتُ ولي رغبةٌ في فتحِ جهازَ اللابتوبْ ورؤية المرآةِ.

حاولتُ أنْ أبعدَ هذهِ الفكرةَ وأعودَ للنّومِ قربَ حبيبتي. شـدٌّ وجذبٌ مـعَ هذهِ الفكـرةِ والتي بـدأتْ تنتصرُ وتدفعنـي لمغادرةِ السريـرِ. أخذتُ جهازَ اللابتوبْ، جلستُ مقابلَ المرآةِ وكأنّي أنتظرُ عرضًا مهمًا منْها وكأنها تنتظرني هنا وكلُ هذهِ المخلوقاتِ الخرافيّةِ لديها ما ستقولهُ لي وللعالمِ.

إنّها تسـتدرجني إليها، إلى هذا المكانِ، كانتْ هذهِ المرآةُ نافذتها. أشـعرُ أنها ستتقافزُ وتركضُ إلى شوارعِ المدينةِ أو ربما قدْ تجذبني إلى عالمها إلى ما وراءَ هذهِ المرآةِ إلى عالمٍ آخر.

أشعرُ بريحٍ خفيفةٍ تلامسُ جسدي، وهذهِ الرّيحُ ليستْ نسماتِ الهواءِ اللّطيـفَ القادمَ منْ جهازِ التكييـفِ بالجهةِ المقابلةِ للمرآةِ، هذهِ الرّيحُ فيها لسـعةٌ سـاخنةٌ قليلاً وفيها القليلُ منْ الغبارِ. الغريبُ أنَّ هذا الغبارَ أقربُ إلى الثلجِ في شكلهِ ولونهِ. مددتُ كفي محاولاً أنْ أمسكَ بشيءٍ منهُ، علقتْ بكفي بعضُ الذراتِ ثمَ ذابتْ، شعرتُ أنها دافئةٌ وليستْ باردةً.

تتسارعُ الأحداثُ بشكلٍ لمْ أكنْ أتخيلهُ ولمْ يخطرْ في ذهني أبدًا.

أرى المـرآةَ تتحـولُ إلى نافـذةٍ حقيقيـةٍ وتطـلُّ عـلى عالمٍ آخـرٍ يصعبُ وصفهُ. ما أراهُ ليسَ خيالاتٌ ولا أحلامُ يقظةٍ، عالمٌ محسـوسٌ بدأَ يرسـلُ لي نسـمةً دافئةً ثمَ غبارًا يشـبهُ الثلجُ والآنَ أرى ما يشبهُ النفقَ الممتدَّ إلى ما لا نهايـةً. تتنوعُ الإضاءةُ وكأني أمامَ عـرضِ فيلمِ رعبٍ وفانتازيا، لكنَّ ما يحدثُ حقيقيٌ.

حاولـتُ النهـوضَ ومغادرةَ المـكانِ أوْ تحويلَ وجهةِ نظـري بعيدًا عنْ المـرآةِ، حاولـتُ تحريكَ يدي لغلقِ جهازِ اللابتوبْ، فشـلتُ كلَّ محاولاتي فأنا كالمشلولِ أوْ المقيّدِ في مكاني.

ظهـرَ (أبو السلاسـلَ)، هوَ فعلاً طويـلُ القامةِ وأظنُ يصـلُ طولهُ إلى متريـنِ وكأنّـهُ منْ أبطـالِ كرةِ السـلّةِ. تلفّهُ السلاسـلُ وكأنّهُ يتسـلّى بلفِّ بعضهـا على بطنهِ وصدرهِ، يقال إنهُ يجرُّ تمثالًا حديديًا، ما يرعبني أنّي أرى نفسي مقيّدًا بسلاسلهِ وهوَ يجرُّني ويتسلّى بعذابي.

كيفَ وصلتْ إلى ما وراءَ المرآةِ؟ أشـعرُ بألمٍ في رقبتي وصدري ويدَيَّ. حاولتُ أنْ أصرخَ وأسـتغيثَ، جسدي يتصبّبُ عرقًا وأشعرُ أنّي سأغرقُ في عرقي. نهضتْ (راشـيلْ) بالصّدفـةِ، كأنّها لمْ تنتبهْ لحالتـي المزريةِ، كلُّ مـا فعلتْ أنّها أغلقتْ جهـازَ اللابتوبْ وهيَ تحضّنـي أنْ أعودَ إلى السّريرِ وأكـونَ بقربهـا. فعلتها (راشـيلْ) وأنقذتني، عـادَ كلُ شيءٍ طبيعيًا، المرآةُ مجرّدُ مرآةٍ وبدأتُ أحرّكُ رأسي وأطرافي.

سـارعتُ بالقفزِ بعيدًا عنْ هذهِ الأريكةِ أمامَ هذهِ المرآةِ، جففتُ عرقي وتبلّلتْ المنشفةُ منْ هذا العرقِ. أشعرُ بألمٍ على رقبتي وكدتُ أصرخَ حيثُ وجـدتُ أثـرَ قيودِ السلاسـلِ حولَ رقبتي وسـاقَيَّ وأماكنَ عـدّةٍ. ماذا لوْ رأتْ (راشيلْ) هذهِ العلاماتِ وكيفَ سأبرّرُ لها ما يحدثُ لي؟

عدتُ إلى السريرِ بقربِ (راشيلْ) كالطفلِ المذعورِ، طوقتني بذراعيها وقبلتني ثمَ عادتْ لنومها. أحاولُ أنْ أنسى ما حدثَ وأبذلُ جهدي كيْ أغمضَ عيني. جسدُ (راشيلْ) الدافئِ منحني الطمأنينةَ، لا أدري كيفَ هزمتُ كلَ ذلكَ الرّعبَ ونمتُ.

نهضنا بحدودِ التاسعةِ صباحًا، هذا يومنا الأوّلُ بمدينةِ (الشارقةِ). تناولنا فطورنا الصباحيَّ وعدنا لنلبسَ ملابسَ خفيفةً ومناسبةً لطقسِ شهرِ مارسَ اللّطيف، لا تزالُ تمطرُ بشكلٍ خفيفٍ جدًا، يتوقفُ المطرُ لدقائقَ أوْ لمدةِ ساعةٍ ثم يعودُ وكأننا جلبنا المطرَ معنا منْ (باريس).

تجنبتُ النظرَ إلى المرآةِ، بينما بدتْ (راشيلْ) فرحةً بهذهِ المرآةِ ومحبةً لها. لمْ أخبرها بأيّ شيءٍ وبدأتُ أحاولُ أنْ أنتصرَ على مخاوفي وأتمنى أن تكونَ كلَ تلكَ الأحداثِ مجردَ كوابيسَ يقظةٍ.

برنامجنا زيارةَ متحفِ (الشارقةِ) للتراثِ، ويقعُ في قلبِ المدينةِ. تهوى (راشيلْ) تصميمَ المصوغاتِ منْ موادَ طبيعيةٍ مثلَ بعضِ الأحجارِ وخاصةً العقيقَ والفضةَ. تسعى أنْ تبتكرَ ماركةً خاصةً بها، ولذلكَ أبدتْ سعادتها وتحمسها لهذهِ الرحلةِ، والتي لا نعرفُ إلى الآنَ منْ الذي خططَ لها وأشترى لنا تذاكرَ السفرِ والحجزَ الفندقيَّ؟

لمْ نسألْ أنفسنا هذا السؤالَ، ويبدو أنَ السؤالَ يكبرُ في رأسي، وخاصةً

أنَ جميعَ أصدقائنا مثلنا ودخلهمْ متواضعٌ وأقلُ منْ المتوسطِ. كأنّي أعرفُ الإجابةَ، نعمَ هوَ (أبو السلاسـلِ) منْ سـهّل قدومنـا إلى هذهِ المدينةِ وهذا السـكنُ وهذهِ المرآةُ الغريبةُ. ترددتُ في نقلِ هذهِ الوسـاوسِ إلى (راشيلْ) وفضلتُ أنْ تسـتمتعَ بهذهِ الرحلةِ، ولكنْ يجبُ أنْ أخبرها، لا أعرفُ متى وكيفَ؟

يمضي الوقتُ بشـكلٍ جيّدٍ واستمتعنا ببرنامجِ اليومِ الأول. استعدتْ ذكريـاتي المتعدّدةَ مـعَ هذهِ المدينـةِ الأنيقةِ التـي يمنحها البحـرُ الكثيرَ منْ الأحـلامِ. تناولنا الغـداءَ في مطعمٍ يمنيٍّ قدّمَ لنا لحمةَ المندي الشـهي وفتةَ بالعسـلِ اليمنيِ الأصيلِ. التقطتْ (راشـيلْ) أكثرَ من مئـةِ صورةٍ بهاتفها المحمولِ وسجلتْ بعضَ لقطاتِ الفيديو.

عدنـا بعدَ الغروبِ إلى سـكننا، ومعَ دخولي إلى المكانِ تحاشـيتُ النظرَ إلى المرآةِ، بينما سـارعتْ (راشـيلْ) لتقفَ أمامها وتأخـذَ بعضَ الصورِ. لمْ تكتفِ بذلكَ بلْ دعتني وسـحبتني بلطـفٍ للوقوفِ معها أمامَ هذهِ المرآةِ. اضطررتُ لتلبيةِ رغبتها. معَ اقترابي ونظري إليها شـعرتُ بهمسـاتِ (أبو السلاسلِ) وصوتَ سلاسله. تأكدتُ أنَ وجودنا هنا ليسَ بالصّدفةِ.

ناقشـتْ مـعَ (راشـيلْ) موضـوعَ هـذهِ الهديةِ، أيْ هـذهِ الرّحلـةِ ومنْ صاحـبِ الهديّـةِ؟ كأنّهـا الآنَ بـدأتْ تفكّرُ بشـكلٍ منطقيٍ وأثارَ السـؤالُ

عدةَ أسـئلةٍ. بدأتْ (راشـيلْ) تتواصلُ معَ الأصدقـاءِ والصديقاتِ الذينَ حضروا حفلتنا.

سألتهمْ بطرقٍ غيرِ مباشرةٍ، وخلالَ ساعةٍ بدتْ متفاجئةً، فلا أحد منْ الأصدقـاءِ لمحَ أوْ ذكرَ موضوعَ هذهِ الرّحلةِ. ثمَ عادتْ لتسـألَ كل واحدٍ عنْ هديّتهِ، وأرسلَ كلٌ واحدٌ منهمْ صورةً لهديتهِ.

خرجنـا بنتيجـةٍ مقلقـةٍ وسـؤالٍ غريـبٍ: منْ أيـنَ جاءَ ذلـكَ الظرفُ الخاصُ بهذهِ الرّحلةِ؟

ظهـرتْ لي فكرةُ فتحِ جهـازَ اللابتوبْ والجلوسُ أمـامَ المرآةِ لتحضيرِ هـذهِ المخلوقـاتِ وأنْ أسـألها، وخاصّـةً (أبـو السلاسـلِ) الـذي يتصدّرُ المشهد. فضلتُ أنْ أفعلَ ذلكَ بعدَ نومِ (راشيلْ). لحسنِ الحظِّ تمتْ دعوتنا إلى عشـاءٍ والاسـتمتاعِ بحفلٍ فنيٍّ فلكلوريٍّ هنديٍّ. حاولتُ أنْ أقللَ منْ أهميةِ السؤالِ عنْ الرّحلةِ وألاّ أتسبّبَ في إفسادِ متعةِ (راشيلْ).

قضينـا ليلةً ممتعـةً وعدنا والرّغبةُ للعناقاتِ تملأ وجهَ (راشـيلْ). نحنُ عرسانٌ جددٌ وفي مكانٍ رومانسيٍ يفوحُ بروائحِ البخورِ والشموعِ العطرةِ. قضينا وقتًا ممتعًا في عناقاتٍ دافئةٍ ومارسنا الحبَّ.

نهضتُ منْ النومِ في تمامِ الثانيةِ و22 دقيقةً و22 ثانيةً بالضبطِ.

تركتُ السّريرَ الدّافئَ بعطرِ (راشيلْ) الأنيقِ ومشيتُ بخطواتٍ وكأنَّ

أحدهم يسحبني إلى الأريكةِ مقابلَ المرآةِ، وامتدّتْ يدي لفتحِ جهازِ اللابتوبْ ليظهرَ (أبو السلاسلِ) وحولهُ بعضُ المخلوقاتِ الخرافيةِ، ولمْ أتمكنْ منْ رؤيتهمْ بوضوحٍ. تشجعتُ وسألتهُ: ماذا تريدُ منيَ يا (أبو السلاسلِ)؟

ضحكَ بصوتٍ عالٍ، شعرتُ أنَّ الجدرانَ تهتزُّ بسببِ ضحكتهِ المدويّةِ.

ردَّ: أنتَ منْ تبحثُ عنَّا وأيقظتنا منْ سباتِنا العميقِ. يقولونَ عندكمْ: مَنْ طلبَ الجنَّ ركضوهُ. نسيَ الناسُ حكايتنا وانشغلوا بأفلامِ الرّعبِ الحديثةِ، وما يُقالُ عنَّا حكاياتٌ قديمةٌ. أتعلمُ أنَّ الوحشَ يشعرُ بقيمتِهِ منْ رعبِ الآخرينَ منهُ؟

قاطعتهُ معتذرًا: حسنًا، أعتذرْ لكَ ولزملائكَ وزميلاتكَ، سوفَ أنسى موضوعَ مشروعي وبحثي عنكمْ، فقطْ دعني وشأني، أنا هنا معَ زوجتي لقضاءِ شهرِ العسلِ، فلا تُفسِدْ علينا حياتَنا.

بقيَ صامتًا للحظاتٍ ثم بدأَ يقتربُ وكأنهُ يحاولُ الخروجَ منْ المرآةِ، لكنهُ فشلَ في ذلكَ. حاولَ عدةَ مراتٍ وأنا بقيتُ كالمقيدِ. سمعتُ صوتًا يشبهُ صوتَ تشققِ زجاجِ المرآةِ، يزدادُ خوفي ويتعاظمُ الرعبُ في المكانِ.

عدمُ قدرتهِ على خرقِ المرآةِ جعلني أشعرُ ببعضِ الأمانِ، ولكنْ وفجأةً رأيتهُ يقذفُ بسلسلتهِ نحوي.

حـدثَ كلُّ شيءٍ بسرعةٍ، تقيّدني سلاسـلهُ ويبدأُ بسـحبي وأنا أحاولُ بـكلِ قـوتي أنْ أغلـقَ جهـازَ اللابتوبْ وأتمسـكُ بـأيِّ شيءٍ. قـوةٌ مفجعةٌ تسـحبني نحوَ المرآةِ، وبعـد لحظاتٍ وجدتُ نفسي في عـالمٍ آخرَ، في مكانٍ كأنهُ نفقٌ مهجورٌ شـديدُ البرودةِ. أسمعُ صوتَ المطرِ وأرى صالةَ السكنِ منْ الجانبِ الآخرِ منْ المرآةِ، اختفى (أبو السلاسلِ) ومنْ كانَ معهُ وبقيتُ وحدي في عالمٍ موحشٍ.

تزدادُ قسـوةُ البردِ وبـدأتُ أبحثُ عنْ ملجـأٍ أوْ شيءٍ يخففُ عني هذهِ الرجفـةِ المفزعـةِ. بدأتُ أمـشي قليلاً وكبرتْ دهشـتي كأني وصلتُ لجزءٍ آخـرَ لا بـرودةَ فيـهِ، لكنْ سرعـانَ ما شـعرتُ أنَّ الهواءَ ثقيلٌ جـدًا، وبعد خطـواتٍ عديدةٍ شـعرتُ أنَّ الهواءَ قدْ فرغَ منْ صـدري. فكرتُ أنْ أعودَ لنفسِ المكانِ الأولِ، لكنَ قدمي قادتني إلى أنْ أدخلَ إلى العمقِ واستكشفَ مناخًا مختلفًا حيثُ يوجدُ هواءٌ، ولكنْ شعرتُ بسخونةٍ كبيرةٍ وكأني قربَ فوهةِ بركانٍ مسـتعر. بدأتُ أحللُ هذا المكانَ وتقسـيماتهِ لثلاثةِ مناخاتٍ: قـربَ المرآةِ برودةٌ قارسـةٌ، وفي الوسـطِ الطقـسُ معتدلٌ ولكنـهُ خالٍ منْ الأكسجينِ، وفي العمقِ حرارةٌ قاتلةٌ.

بقيـتُ أركـضُ في هـذهِ المناطقِ الثـلاثِ وكأني نزلتُ إلى قـاعِ الجحيمِ بتقسيماتها المؤلمةِ.

اختفى (أبو السلاسلِ) منْ هذا المكانِ وتركني أتجرعُ هذا الرعبَ. أركضُ إلى المدخلِ الذي سحبني إليهِ هذا المخلوقُ المرعبُ وأتمنى أنْ تستيقظَ (راشيلْ) وتغلقَ جهازَ اللابتوبْ، فقدْ أعودُ إلى عالمي الأولِ.

يمضي الوقتُ ببطءٍ شديدٍ وأنا أركضُ في المناطقِ الثلاثِ ولا أقدرُ على التقدمِ إلى العمقِ بسببِ الحرارةِ التي تزدادُ وكذلكَ الظلمةُ المفجعةُ. ينتابني القلقُ وأسألُ نفسي: ماذا لو بقيتْ هنا إلى الأبدِ؟

هل أنا ميتٌ وهذا عالمُ ما بعدَ؟ هل ذلكَ المخلوق هوَ (ملاكُ الموتِ) وليسَ (أبو السلاسلِ) ومهمتهُ نقلي إلى هذا العالمِ؟

عدتُ إلى المدخلِ وعبرَ المرآةَ أرى صالةَ الشقةِ فارغةً.

لا تزالُ (راشيل) نائمةً، حاولتُ الضربَ بقدميَّ ويَديَّ، لكنْ يبدو أنَّ هذهِ المرآةَ هي الفاصلُ بينَ عالمينِ.

بدأَ نهارٌ جديدٌ، أشاهدُ أشعةَ الشمسِ تتسللُ إلى شقتنا عبرَ نافذةٍ مقابلَ المرآةِ. عدتُ أركضُ وانتقلتُ بينَ المناطقِ الثلاثِ كأني أحاولُ كسبَ بعضِ الوقتِ. عدتُ للمدخلِ، استيقظتْ (راشيلْ) منَ النومِ، ناديتها لكنها يبدو أنّها لا تراني. بدتْ سعيدةً تغني وترقصُ وهيَ تستعدُّ لأخذِ حمامها.

بقيتُ أتأملها وأتمنى الخروجَ لمعانقتها. مشتْ إلى المطبخِ ثم عادتْ،

توقفتْ تتأملُ وجهها في المرآةِ، بقيتْ من الجهةِ الأخرى لهذهِ المرآةِ رغمَ قسوةِ البرودةِ.

مشتْ (راشيلْ) خطواتٍ ثم عادتْ لتغلقَ جهازَ اللابتوبْ وتوجّهتْ مسرعةً إلى الدوش. بعد لحظاتٍ، حدثتْ المعجزةُ وقذفتني المرآةُ إلى الضفةِ الثانيةِ.

غادرتُ ذلكَ العالمِ ما وراءَ المرآةِ، وجدتُ نفسي في وسطِ الأريكةِ. سارعتُ بالنهوضِ ثم ركضتُ إلى غرفةِ النومِ أجمعُ فوقَ جسدي البطانياتِ والأغطيةَ، كأنَّ روحي تعودُ بالتدريجِ.

بدأتُ أشعرُ ببعضِ الدفءِ.

دخلتْ (راشيلْ) بعدَ أنْ أخذتْ حمامها، بدأتْ تقتربُ مني وتنزعُ الأغطيةَ والبطانياتِ. أحاولُ أنْ أعيدَ توازني، سارعتْ لمعانقتي، تمسكتْ بي ليطولَ عناقنا.

سحبتْ نفسها بلطفٍ وابتسمتْ، تعتذرُ: آسفٌ حبيبي، طويتُ جهازَ اللابتوبْ، سوفَ أعيدُ فتحهُ الآنَ.

قفزتُ من مكاني مفزوعًا وأنا أرددُ: خلاص، هوَ مُعطَّلٌ، لا تفتحيه. سنتخلصُ منهُ.

أبدتْ استغرابها، وخاصةً أنها تعرفُ أنهُ يحوي ملفَّ قصصي عن المخلوقاتِ الخرافيةِ. بقيتُ أُغطّي جسدي بأحدِ الأغطيةِ وأنا عاجزٌ عن إخبارِها بما حدثَ لي.

السِعْلاة

تغـادرُ الشّـمسُ سـماءَ باريس وقـدْ لا ينتبـهُ البعضُ لمسـيرةِ الغروبِ وتفاصيلـهِ المدهشـةِ، كنتُ بالمترو ومـعَ كثرةٍ تنقلنا قـدْ لا تعلقُ في أذهاننا وجوه ولا نعودُ إلى بيوتنا بحكاياتٍ، يجلس أمامي شـاب يبدو منْ ملامحِ وجههِ أنهُ عربيٌ، ظلَ مستغرقًا في غفوةٍ معَ هدهدةِ المترو.

فجأةً نهضَ وهوَ يصرخُ بصوتٍ مفجوعٍ : السِعْلاة، السِعْلاة

السِعْلاة

خلصوني منها . فكينيّ فكينيّ.

عـمَّ الذعرِ بالمـكانِ وبدأَ الناسُ يغـادرونُ هذهِ العربـةِ، بعضهمْ يجمعُ أشياءهُ ويبتعدُ ويظلّ متفرّجًا من بعيد، لأني بملامح عربيةٍ أيضًا ، شعرتْ أنَ ملامـحَ الوجوهِ وحركةِ العيونِ تحضني المسـارعةُ والتدخلُ للسـيطرةِ عـلى الموقـفِ، لمْ يكنْ الشـابُ يحملُ سـكينَ أو أيّـة أداةَ عنفٍ، سـارعتُ واقتربتْ منهُ وأنا أحاولُ تهدئة رعبهِ.

وأهمسُ لهُ :سلاماتْ

يا أخي صلّي على النبيِ.

توقفَ للحظاتِ وهوَ يحدّقُ بي، يلتفتَ يمينًا ويسارًا، يحاولُ أنْ يسيطرَ على نفسهِ وتحوّلَ صراخهُ إلى همسَ.

ظلٌ يردد :السِـعْلاة بنتُ الشـيطانِ الرجيم ترسـلُ لي عثيـونْ ، عثيونْ جِنّـي صغـير أركلهُ برجلي، لوْ مسـكتهُ أشـقهُ اثنين لكنَ السـعلاة خطيرةً وقلبها منْ حجرٍ ملتهبٍ. عادَ السكونُ إلى عربةِ المترو.

اقـترحَ الشـابُ أنْ ننزلَ لأنهُ لمْ يعـدْ يحتملُ نظراتِ النـاسِ، فعلاً نزلنا بمحطةِ جورجْ 5وسرعانَ ما صعدنا السّلالمَ لنصلَ إلى شارعِ الشانزليزيهْ، مشينا قليلاً ثمَ انعطفنا إلى أحدِ الشوارعِ الخلفيةِ لنجلسَ بأحدِ المقاهي.

عرفني الشابُ بنفسهِ وهوَ يعتذرُ لما سببهُ منْ إزعاجٍ

يتحدثُ بصوتٍ مسموعٍ :اسمى سليمانْ وأنا إمارتي منْ رأسِ الخيمةِ، هربـتْ منْ الجـنِّ الذينَ عندنا لحقونـا إلى هنا . . . وأنتَ يـا طيبٌ منْ أيِ بلدٍ؟

عرفتهُ باسمي وأني يماني مقيمٍ هنا.

كأنـهُ اطمئـنَ أكثر وقالَ : أبو يمـنُ ، الرجالُ والقلـوبُ الطيبةُ ، أنعمَ بأهلِ الخيرِ والفضلِ.

ثـمَ بدأَ يحكـي قصتهُ المثـيرةَ، كأنهُ متلهـفٌ إلى أحدٍ ليسـمعهُ وينصتُ إليْـهُ :أنـا ابنُ ناس وعندنا تجـارة وحلال، والوالد اللهُ يَطُـولُ في عُمرِه بنى

لي بيتًـا، والوالـدة خَطَبَتْ لي بنتًا جميلةً ومِن أصـلٍ طيبٍ، وكان المفروض الآن أكـون عريسًـا متهنيًا ومسـتقرًا، لكـن في ليلةٍ سـوداء وقعت ضحية السـعلاة. عمري ما فكرت بالشـين ولا الغلط، تشـكلت في شـكلِ امرأةٍ مغريـةٍ ورُكِبتْ معي السـيارة إلى منطقةٍ خالية، كان قصـدي هدره عاديةً يعنـي مجرد كلام، كشـفت عن مفاتنها وجسـمها كأنه جسـم ملكة جمال العالم. فجأةً يا أخي انقلبت لصورتها الحقيقية، أنفها أحمر يخرج منه دخانٌ ويسـيلُ قيـحٌ، والعياذُ بالله وفمها واسـعٌ وأسـنانها مفارقةٌ وكأنها أسـنانُ الحمار، لو تشـوف البشـاعة ورأسـها نصهُ شـعرٌ منفوشٌ تفوحُ منهُ زهامةٌ ونصٌ أقرعُ وفيهِ قرنٌ مكسورٌ.. الرائحةُ الكريهةُ من كل جسمها وعيونها داخلـةٌ وعليها المغل، خليتُ لها السـيارةَ وهربـتْ وتعكرت حياتي، قلتُ أهربُ إلى باريس نريحُ أعصابي لكنَ والله باريس فيها مئات السـعلوات، أنت تفهمني هلْ سمعتْ عن السعلاة هيَ بنتُ الشيطان.

جـاءتْ نادلـةً شـابةً أنيقـةً تسـألنا عـنْ طلبنا وظـلَ يحدقُ في سـاقيها وقدميها، طلبنا قهوةً ، أشرتْ إليهِ ألَّا يحدق بهذا الشكلِ اللافت للنظر.

بعـد مغـادرةِ النّادلـةِ همـسَ لي بصوتٍ خافـتٍ : يقولون إنَّ للسـعلاة أَرجُـل حِمَار والْبَعْض تَقُول أَرجُل عَنزَة، أَنَا بِصراحة مَا شُـوفْتْ رِجْليْهَا، لَكِـن صَـارَت باريـس مِلْيانة بِالجْـنِّ ، بِالْمْـتْرو أَخذتْنِي غَفـوَة وَهِي بَعثَت لِي غِثْيـون،، هـذَا جنّي صغير أَهبَل يُقْلِـق مَنَام الواحد لَكِن السَّـعلاة هِي

الخطـيرة دَيْـر بَالِك تُغْوِيك وَحدَة بِصوْتِهَا النَّاعم وَجسـمِها اَلرشِـيق وَإِذَا اِنْقلَبتْ إِلى سَـعلاَة أو سَـعلْوَة كُلهُم نَفْس الشَّيْء البعْض يُسَـميهَا سَعلاَة وَنَاس تَقُول سَـعلْوَة، اَلمِهم حياتك تُصْبِح جحيم مِثْل حَياتِي ، أُسَـافِر مِن بلـد إِلى بلد ، فقط أُريد، (يصمتُ، يتلعثمُ، ثم يكملُ العبارةَ)، يومٌ ارتاحَ منها ومنْ اتباعها لا نوم ولا هنا وتفركش الزواج.

في هـذهِ اللحظـةِ تذكـرتْ أنَ هذهِ المخلوقةِ يسـمونها عندنـا في اليمنِ وخاصةً في تهامة باسـمِ (الكويعهْ) والكويعة تظهـرَ للرجالِ وخاصةً عندَ الآبـارِ والأماكـنِ الخاليـةِ وتغريهـمْ وعندما يتبعونهـا إلى مـكانٍ مظلمٍ قدْ تمارسُ معهمْ الجنسَ وبعدها تظهرُ على صورتها القبيحةِ كعجوزٍ شـمطاء كريهـةٍ الرائحةِ وتأخذُ عقلَ الرجلِ الذي تغريهُ فيصابُ بالجنونِ أوْ الخبلِ أوْ عاهةٍ في عقلهِ ويصبحُ مضحكة الناسِ.

عادتْ النادلةُ بالطلباتِ ووجهها يشرق بابتسامةٍ لطيفةٍ ، لكنَ سليمانْ ظل يتحاشى النظرُ إلى وجهها أوْ صدرها، وضعتْ طلبنا وغادرتْ.

عـادَ ليهمـسَ لي : أنـتَ مقيـمٌ في باريـس ، عليـكَ اللهُ يا بو يمـنُ تنتبهُ لنفسـكَ ولا تغويكَ السِـعْلُوَّة ، أقـولُ لكَ باريس فيها عـشرةُ ألف وربما أكثرُ . . . راحَ أرجعَ رأسُ الخيمةِ، سَعَالى باريس ، ضربةُ والقبرُ ، يأخذونَ ما في جيبكَ وحسـابكَ وعقلكَ ويخربونَ بيتـكَ وتصيرُ مضحكةً الناسِ،

أرجعَ لي بلديٌ جني تعرفهُ ويعرفكَ أحسنَ منْ جنيٍ لا تعرفهُ . . . صحَ هكذا يقولُ المثلُ.

ضحكتُ وأنا أصححُ لهُ المثل وقلتُ لهُ :يقولَ المثلُ جِنِّي تعرفهُ ولا إنسي لا تعرفهُ.

نبهتهُ أنْ يشربَ قهوتهُ، نظر إلى فنجانِ القهوةِ ثمَ حدقَ بوجهي وهمسَ لي : لا قهوةً، لا، لاقهوةٌ يا شيخ . . . أنا ممنوعٌ منْ المنبهاتِ والمسكراتِ لوْ شربتْ رشفةً يجافيني النومُ ولا تنفعُ المهدئات ولا الحبوبَ المنوم، بعدينِ أشكُ تكونُ هذهِ البنتِ سعلاة، شوفَ، شوفَ هناكَ بالطاولةِ هذيكَ، تلك المرأةِ كأنّها تبتسمُ لنا وتحاولُ تغرينا . . . هيا نحاسب ونمشي، فقطْ أعمل معروفًا ووصلني إلى الفندق أخافَ تسرقني واحدةً منْ سَعَالى باريس، بكرهِ أرجعَ بلديٌ واللهُ يعينكمْ على هذهِ المدينةِ.

بدأتْ يدهُ ترتعشُ والخوفُ يرتسمُ على وجههِ، دفعنا الحسابُ وهنا تأملتُ المرأةُ الشابةُ التي أشارَ إليها وكأنها فعلاً ترسلُ لنا بعضِ الابتساماتِ، ابتسمتُ لها وكأنها فهمتْ أني سأعودُ إلى المكانِ.

صحبتْ سليمانْ إلى فندقهِ الذي لمْ يكنْ بعيدا عنْ المقهى، شكرني وأخذَ رقمي وظلَ ينصحني ويردّدُ : أخويا بو يمن خليكْ حريص واحذرْ سِعْلُوَّة باريس، ضربتها تخربُ البيوتُ.

أخبرتهُ بأني لا أبحثُ عنْ أيِ مغامرةٍ.

بقيتْ قصةَ سليمانْ تدورُ في رأسي، بدأتْ أعيدُ تلكَ المشاهدِ التي رواها لي، لا أدري كيفَ قادتني قدمايَ إلى نفسِ المقهى الذي كنا فيهِ.

وجدتُ نفسي قدْ اخترتُ طاولةٌ على الرصيفِ، كانَ الطقسُ ناعمًا، أشعلتْ سيجارةً وأنا منشغلٌ بقصةِ السعلاة ثمَ بدأتْ أبحثُ عنْ معلوماتٍ عنها وتبدو المعلوماتُ تشبهُ ما قالهُ سليمانْ.

هنا اقتربتْ مني تلكَ المرأةِ الشابةِ الجميلةِ وطلبتْ سيجارةُ ومشاركتي الطاولةُ، رحبتْ بها وحاولتْ أنْ أكونَ لطيفًا وأخرجَ منْ قصةِ سليمانْ والسعلاة.

عرفتني بنفسها (لوليتا) بدتْ مبتسمةً، أخبرتني أنها تنتظرُ صديقتها ولكنَ صديقتها لا ترد وأنها طلبتْ كأسُ نبيذٍ واكتشفتْ أنها نسيتُ محفظتها لذلكَ هي محرجةٌ منْ صاحبِ الحانةِ.

قالتْ بصوتٍ :أنا محرجةٌ جدا أنْ أطلبَ منكَ تسديدِ ثمنِ كأسي وإنَ منْ الممكنِ أنْ نتشاركَ بكأسِ آخرَ أوْ طلبِ قنينةٍ ، أسعارهمْ جيدةً ومعقولةً ، أتمنى أنْ أقضيَ ليلةٌ هادئةٌ لأني خرجتْ منْ علاقةٍ عاطفيةٍ معقدةٍ ، كأنَ الرجالُ في هذهِ المدينةِ أصيبوا بعقدةِ ما وأنا منذُ ساعةِ وأكثرُ هنا لمْ يبتسمْ لي أحدٍ ، أنتَ أنتَ كنت هنا قبل قليلٍ معَ صديقِ لكَ، ما

بال ذلكَ الشـابِ يبدو أنهُ يخافُ منْ النسـاءِ الجميلاتِ. ابتسمتْ لهُ وكانَ تصرّفهُ محبطا لي.

أبديـتُ ترحيبيًـا بهـا وطلبنا قنينـةً وبدأنا نـشربُ وندخـنُ ونتحدثُ وأخبرتها بشكلٍ مختصرٍ بقصتهِ.

تحدثتْ عنْ نفسـها وقالتْ: حقيقةً، أنا لا أعرفُ أصلي ولستُ مرتبطةً بعائلتـي الموجـودةِ بمدينـةِ شـيربورغْ بالنورمانـدي. ويقـال إنَّ أبي كانَ صيـادًا، وذاتَ مـرةٍ خدعهُ شـبحٌ وأوهمهُ بأنَّـهُ صيادٌ صديقٌ، فاسـتدرجهُ إلى عمـقِ البحرِ، ووجدوهُ بعد عدةِ أيامٍ ميتًا، وجسـدهُ خالٍ منْ الدمِ كأنَّ أحدهمْ مصَّ دمهُ وتركهُ جثةً هامدةً. عرفتُ أنَّ علاقتَهُ بأمي كانتْ سيئةً، وأنها كانتْ على علاقةٍ بشـخصٍ آخرَ. جئتُ إلى باريس منذُ ثلاثةِ أعوامٍ، وتخاصمتُ معها. تعلمتُ مهنةَ ترميمِ الأزياءِ التراثيةِ القديمةِ، وأسعى أنْ تكونَ لي ورشةٌ ويكونَ لي شريكٌ لنفعلَ شيئًا جميلًا في هذهِ الحياةِ.

ذكرتني قصتها عنْ والدها بخرافةٍ خليجيةٍ موجودةٍ في التراثِ اليمني والخليجي وهيَ خرافةٌ قديمةٌ تسمى (بودرياهْ) أو (بابا دريا) وأهل تهامة اليمن يسمون هذه المخلوقات العضاريط.

قلـتُ لها : قصةُ والدكَ تذكـرني بخرافةٍ موجودةٍ عندنا بالخليجِ وحتى اليمنِ تسمى بودرياهْ وأفعالهُ تشبهُ ما حدثَ لوالدكَ.

أخبرتها أني كاتبٌ وفنانٌ وأهوى التراثَ الشعبيَ بقصصهِ وحكاياتهِ المثيرةِ.

قالتْ: أنا أخافُ منَ الماضي كثيرًا، تعلمُ أنَّ الماضي قدْ يعودُ ويعصفُ بكَ ويدمِّرُ الحاضرَ والمستقبلَ. مهنتي هيَ تجميلُ أشياءَ منَ الماضي، أشعرُ أحيانًا وأنا أمسكُ زيًا قديمًا أنَّهُ ليسَ مجردَ قماشٍ وخيوطٍ حريريةٍ أوْ فضيةٍ، أشعرُ في أحيانٍ كثيرةٍ بروحِ الشخصِ الذي كانَ يلبسُ هذا الزيَّ، وقدْ يزورني في أحلامي ليقولَ لي شيئًا أوْ يقودني إلى مكانٍ. وليتني كنتُ كاتبةً مثلكَ، ربما كنتُ كتبتُ عدةَ رواياتٍ. إنْ أحببتَ أنْ تساعدني، يمكننا أنْ نكتبَ شيئًا مثيرًا، أمْ أنَّكَ خائفٌ أنْ أكونَ سعلاةً متوحشةً تسلبُ عقلكَ وروحكَ.

بقيتُ صامتًا للحظاتٍ وهيَ ترمقني بنظراتها، ثمَّ تناولتْ كأسي كيْ أشربَ. ابتسمتْ، وتركتْ كرسيها المقابلَ لي وجلستْ بقربي، يكادُ جسدها يلتصقُ بي، كأنَّها تريدُ هذا وتشجعني على قبولِ بعضِ الملامساتِ العفويةِ ونسيانِ قصةِ سليمانَ والسعلاة.

أكملنا القنينةَ ولمْ تظهرْ نشوةُ النبيذِ، وكأنَّ هذه القنينةَ الأولى تدعونا إلى قنينةٍ ثانيةٍ، كأنَّها تشاركني هذهِ الفكرة.

ابتسمتْ وقالتْ: ليلةٌ باريسيةٌ هادئةٌ ومقمرةٌ لا تكفي قنينةً واحدةً،

ولكنْ سيكونُ مـنَ الأفضلِ أنْ نأخـذَ قنينةً منْ محلٍّ رخيـصٍ ونمشي إلى مكانٍ آخر... أينَ تسكنُ؟

أخبرتهـا أني حقيقـةٌ لسـتَ مـنْ أهـلِ باريـس وأسـكنَ بمدينـةٍ كونَ بالنورماندي ولكني هنا لقضاءِ أسـبوعٍ في باريـس للكتابةِ وتركَ لي أحدِ الأصدقاءِ سكنهُ، السكنُ قربَ حي مونمارت.

غمـزتْ لي بعينهـا وهيَ تضحكُ: نذهـبُ إلى سـكنكَ إنْ أحببتَ، أنا كذلـكَ بحاجةٍ لأنْ أتحدثَ وأحكي. أظهرُ كأني ثرثارةٌ، وأجدُكَ شـخصًا تنصتَ جيدًا للآخرينَ، لكنكَ تبدو متأثرًا بقصةِ صديقكَ وهذهِ السـعلاةِ المتوحشـةِ، وكأنَّ الرجالَ في هذهِ المدينةِ يشـبهونَ صديقـكَ. باريس فيها الكثـيرُ مـنَ الجميلاتِ الطيباتِ وغيرِ المتوحشـات. إنْ كنـتَ خائفًا تدفعُ الحسابَ وتعطيني بعضَ السجائرِ وقيمةَ تذكرةِ المترو، وغدًا نلتقي وأدفعُ لكَ هذه الديونَ.

أمسكتُ بيدها، ابتسمتْ ولمْ تمانعْ أوْ تسحبُ يدها.

هزتْ برأسها :إذنٌ موافقٌ.

بدتْ تقاسيمَ وجهي تقولُ لها نعمَ ، نعمَ.

قلتُ لها بعبارةٍ متلعثمةٍ :بكلِ سرورٍ.

مـعَ لمـسِ يدِهـا، انتبهـتُ لتقاسـيمِ وجههـا الأنيـقِ وجسـدها المفعمِ

بالأنوثـةِ. هيَ تصغرني بالعمرِ كثيرًا، ربما تكـونُ بنهايةِ العشرينياتِ، وأنا أخطـو سـنواتي لمغادرةِ الأربعينيـاتِ قريبًا. هذا القوامُ المتوسـطُ، وهيَ في حركاتهـا تدفـعُ بصدرها قليـلاً إلى الأمـامِ، وكأنها تحـاولُ تعويض منظر صدرهـا ونهديهـا الصغيرينِ بالقليل من الإثـارة في بعض حركاتها، كأنها تقرأُ ما يدورُ في ذهني.

ابتسـمتْ وهمسـتْ: قدْ لا أكونُ أملـكُ صدرًا مغريًـا، وجمال وجهي ربما متوسـط، ويبدو عمري العشرينيات، الحقيقةَ عمري خمسـةً وثلاثينَ. فروقـاتُ السـنِّ واللـونِ والشـكلِ وحتـى الحالـةِ الاجتماعيـةِ لا تهمني. لا أبحـثُ عنْ مغامـراتٍ تافهةٍ، أحـبُ أنْ أكونَ بقربِ شـخصٍ يفهمني ويسمعني ويشعرُ بي كأنثى أيضًا.

غادرنـا المقهى واشـترينا مـا نحتاجهُ مـن أجـلِ ليلتنا منْ طعـامٍ وتبغٍ ومشروبٍ، ووصلنا إلى السـكن. كنا بحالةٍ عاديـةٍ طبيعيةٍ، حدثَ شيءٌ لمْ أفهمـهُ. عندما أدخلت المفتاحَ لفتحِ البابِ، لمْ يفتحْ البابُ. حاولت مراتٍ ومراتٍ، بعدَ لحظاتٍ مرَّ أحدُ جيراني، وكأنهُ انتبهَ لمشكلتي وساعدني بفتحِ البابِ. بعدَ دخولنا، انتابتني لحظةُ شكٍ، وقلتُ في نفسي: هذا الجارِ كأنهُ لمْ يلاحظْ (لوليتا)، وكأنها لمْ تكنْ مرئيةً لهُ، أمْ أنهُ لمْ ينظرْ لها كسلوكٍ مهذبٍ، أمْ أنَ رجالَ باريس أصبحوا يتحاشونَ النظرَ إلى الجميلاتِ.

فضلتُ ألا تكبرَ هذهِ الأسئلةُ وتفسدَ هذهِ الليلةَ الجميلةَ.

فوجئتْ بلوليتا وهيَ تقولُ: أرأيتُ جارِكَ وهوَ يساعدكَ بفتحِ البابِ؟ كأنـهُ تحاشـى النظـرَ لي وكأني غـيرُ مرئيـةٍ. يبدو أننـا في زمنِ وبـاءِ مفجعٍ ومرعبٍ سـيغيرُ مـنْ وجهِ باريـس لوْ سـيطرتْ خرافةُ السـعلاة. باريس كانتْ ويجب أنْ تظلَ مدينةَ الرومانسـيةِ والليـالي اللطيفةِ، حيثُ يتعارفُ النـاسُ، يلتقـونَ ويفترقونَ ويعـودونَ بحكايـاتٍ مبهجةٍ تصبـحُ قصصًا وقصائدَ وفنًا إنسانيًا.

يبهـرني كلامهـا وطريقةُ قراءةِ ما في رأسي، وهيَ تزيلُ أيَ شـكٍ لحظةً بلحظـةٍ. اسـتغربتُ مـنْ نفسي، وكيـفَ أكتبُ عـنْ الجميـلاتِ، وأخلقُ بعضهـنَ منْ خيالي، وأبذلُ جهدي للتقربِ منهنَ لتحدثَ أشـياءُ لطيفةٌ. معي الآنَ (لوليتا) تشعُ بالأنوثةِ والتقاربِ والرغبةِ.

هنا وأنا أحاولُ تحرير رأسي منْ خرافةِ السعلاة، وأنْ أرى وأتعاملُ معَ (لوليتـا) الجميلةِ كامرأةٍ بجسـدٍ وروحٍ ورغبـاتٍ تتدفقُ، وكبحرٍ يدعوني لرمـي جسـدي معَ أمواجـه وزرقتهِ، بحرٍ لا يسـمحُ بوجـودِ بودرياهْ ولا العظاريطْ.

هنا رنَ هاتفي، ليأتيَ صوتُ (سليمانٍ) خافتًا يهمسُ لي: أخويا بو يمن، ديرَ بالكَ تكون رجعتْ للمقهى. المرأةُ الجميلةُ هذيكْ التي كانتْ تبتسـمُ لنا لتغوينا، صدقني. إن كنتَ معها، أسـحبُ نفسـكَ بهـدوءٍ، وأحذرُ أن

تكونَ أخذتكَ لمكانٍ مهجورٍ أوْ مظلمٍ... انتبهُ أخويا... أنا بكره راجع إلى الإماراتِ، وأرحبُ بكَ عندنا برأسِ الخيمةِ، نستضيفكَ صديقًا عزيزًا.

بـدتْ ملامـحَ وجهي عاديـةً رغمَ ما يبعثـهُ صوتُ سـليمانْ منْ رعبٍ مقلقٍ.

تحدثـتْ معـهُ بالعربيةِ وقلـتَ لهُ تصلُ بالسـلامةِ، لا تقلـقُ، أنا بخيرٍ، ليلتكَ سعيدةً.

هنا فجـأةً ينطفئ الضـوءُ بالمـكانِ، أخبرني صديقي صاحبُ السـكنِ بوجـودِ مثلِ هذهِ المشـكلةِ وتُحـلُّ في الصباحِ عندما يأتي حارسُ السـكنِ، ولذلـك توجـد العديدُ من الشـموعِ لمثلِ هذهِ الأوقـاتِ، لا تبدو (لوليتا) قلقةً.

انشـغلتْ بفتحِ القنينـةِ وإعدادِ الكؤوسِ ووضـعِ بعضِ المقبلاتِ على طاولةٍ دائريةٍ، سـارعتْ وأشعلتْ عدةَ شموعٍ، السكنُ عبارةٌ عن استديو متوسـطٍ يشبهُ إلى حدٍّ ما استديو السكنِ الأمريكي، وتوجدُ أريكةٌ تتحولُ إلى سرير، ومطبخٌ صغيرٌ جدًا ولكنْ ما يميزهُ وجودُ حمامٍ واسعٍ.

بـدأَ ينشـطُ الحوارُ بداخـلي حولَ ما حـدثَ ويحدثُ وكأننـي أردُّ على بعضِ الشـكوكِ باسـتحالةِ أنْ تأويَ باريس وحشًـا أوْ شـيطانًا، وها هيَ (لوليتا) أمامي تأكلُ وتشربُ وتدخنُ. ثمَ اسـتأذنتْ لدخولِ الحمامِ، أقنعُ

نفسي بأنني معَ الجميلةِ ولستُ معَ الوحشِ، وهذا لقاءٌ صدفةً وليسَ أولُ لقاءٍ لي معَ امرأةٍ ينتهي بحكايةٍ لطيفةٍ. لا يبدو منْ مظهرها ولا منْ تصرفاتها أنها منْ بناتِ الليلِ، فهذهِ النوعيةُ لا تهدرُ وقتها بحديثٍ ثقافيٍ ولا فنيٍّ ولا شخصيٍ، وهنَّ يحسبنَ الوقتَ بالحسابِ ويطلبنَ المالَ مقدمًا.

بعدَ خروجها منْ الحمامِ، خلعتُ الجاكيت الخفيفَ، تبدو مغريةً أكثرَ في عيني، ثمَ بدأتْ تحدثني عنْ خصوصياتٍ لمْ أسألها عنها وكأنها تؤكدُ لي كينونتها كأنثى وامرأةٍ وإنسانةٍ طبيعيةٍ.

أنا لا زلتُ بالجاكيت والحذاءِ، فأشارتْ لي تنبهني بخلعِ الجاكيت الثقيلِ وكأنها تقولُ لي: أنتَ في بيتكَ.

فسارعتُ بالتخلصِ منْ ثقلِ الجاكيت والحذاءِ. ثمَ رأيتها تتأملُ المكانَ، قامتْ بنقلِ القنينةِ وبقيةِ الأشياءِ إلى طاولةٍ صغيرةٍ قربَ الأريكةِ وأشارتْ لي بأنَّ هذا المكان أفضل، فوافقتها وأنا أنتزعُ الشكوكَ منْ صدري وكأنها شوكٌ حادٌّ في كيسِ قطنٍ ناعمٍ.

بدأتْ لوليتا تتحدثُ وتقولُ: بصراحةٍ، عندما كنتُ بالمقهى، شعرتُ أنَ شيئًا سائلاً ينزلُ مني. تأكدتُ عندَ دخولي الحمامِ أنهُ ليسَ مؤشرًا على الدورةِ الشهريةِ، لا يزالُ وقتها بعدَ أسبوعٍ وتظلّ معي ليومينِ أوْ ثلاثةٍ، لأني أستخدمُ حبوبَ منعِ الحملِ. تكون باليومِ الأولِ مؤلمةً وتسببَ لي ألمًا

بظهري وفخذايْ، واليومَ الثاني أبدأُ أستعيدُ عافيتي. كنتُ مرتبطةً برفيقٍ، ولكنْ منذُ شهورٍ تجمدتْ العلاقةُ وأصبحنا نعيشُ في جمود. بعدها رأيتهُ زاهدًا بي، حتى أنهُ لا ينظرُ لي كامرأةٍ، ثمَ طلبَ مني المغادرةَ. لجأتُ إلى صديقةٍ منذُ شهورٍ قليلةٍ، وبدأتْ كالمتذمرةِ، فهيَ تريدُ أنْ تدعوَ رفيقها. قدمتُ طلبَ سكنٍ عبرَ جمعيةٍ نسائيةٍ، وسأستلمُ المفتاحَ بعدَ عشرةِ أيامٍ وربما أقلُ. بعدُ ذلكَ يمكنكَ زيارتي كما تحبُ.

كأنها تدعوني أنْ أتحدثَ أيضًا عنْ بعضِ خصوصياتي وحالتيْ العاطفيةِ وربما أيضًا قدراتي الجنسيَّة، رفعتْ كأسها ومدتْ لي بكأسي، بقيتْ منتظرةً أنْ أتحدثَ.

تظهرَ ملامحَ الارتباكِ والشكِ على وجهي.

قلتُ لها: لكلٍ واحدٍ ماضيهُ العاطفيّ، ومنذُ فترةٍ وكأني أعيشُ وأتعايشُ معَ شخصياتٍ نسائيةٍ يخلقها خيالي. في كلِ خيالٍ حقيقةٌ، وفي كلِ حقيقةٍ خيالٌ. في هذهِ الفترةِ، أخوضُ وأشاركُ ببعضِ المسابقاتِ الأدبيةِ والفنيةِ، وأقدمُ ملفاتٍ للحصولِ على بعضِ الدعمِ والخروجِ من مشاكلَ ماديةٍ متعبةٍ، أخافُ أنْ تعيقَ إبداعي. ولكنْ لا شيءَ مضمونٌ في عالمِ الجوائزِ والمسابقاتِ الإبداعيةِ. في الفترةِ الأخيرةِ، عدتُ أنجذبُ أكثرَ للتراثِ والفنونِ الشعبيةِ والخرافاتِ الشرقيةِ، وخاصةً في بلدي

اليمـنِ والدولِ الخليجيةِ. أكتبُ وأكتبُ ولا أدري إلى أينَ سـتقودني هذهِ الكتاباتُ، وكذلكَ الرسمُ.

بـدأتْ تـزدادُ ملامسـاتُنا الجسـديةُ البسـيطةُ، نحـنُ في جـوٍّ رومانسيٍ لطيفٍ، تشعَ الشموعُ بأضواءٍ وروائحَ عطريةٍ.

أعـودُ لنفسي وأهمـسُ بداخـلي: الأرواحُ الشريـرةُ لا تحتمـلُ الروائحَ الطيبةَ وتفرُّ منْ ضوءِ الشموعِ. لوليتا ليستْ السِّعْلاة ولا يمكنُ أنْ تكونَ سِّـعْلاةً، ويتحولُ عطرُ جسدها الياسـميني اللطيفَ إلى قيحٍ ودمٍ وصديدٍ نتـنٍ كما يحـدثُ عندما تتحـولُ السِـعْلُوَّة. وأظـنُ أنَّ السِّـعْلاة والكويعةَ وما يشـابهم لا يهدرونَ كلَّ هـذا الوقتِ ويبتكرونَ سـيرةً ذاتيةً لحياتهم، ويأكلونَ ويشربونَ.

أخرجـتْ هاتفهـا المحمـولَ واقتربـتْ منـي أكثـرَ لتعـرضَ لي بعضَ الفيديوهاتِ وهيَ تعملُ، وفيديو لها بالمسبحِ معَ صديقاتها وصورٍ كثيرةٍ.

كما أنَّ لها حساباتٍ على معظمِ وسائلِ التواصلِ الاجتماعيِ، كمن يقرأُ وشواشاتي الداخليةَ ويردُّ عليها.

أصبحنـا أصدقـاءَ عـلى فيسـبوكَ وإنسـتغرامَ وتيك توكَ وواتسـابَ، سـارعتْ لترسـلَ لي ببعضِ الفيديوهاتِ لتكسرَ الحاجزَ الذي أبنيهِ بفعلِ وتأثيرِ قصةِ سليمانَ والسعلاةِ. لو لمْ ألتقِ بسليمانَ لما كنتُ مررتُ منْ ذلكَ

المقهى، لم نكنْ لنلتقيَ وتكونَ هذهِ الحكايةُ. شعرتُ أنني الوحشُ الذي لا يرى هذا الجمالَ، الوحشُ بداخلي يجعلني مرتبكًا ومضحكًا وأنا معَ الجميلةِ التي لا تحملُ شرًّا لأحدٍ. كذلكَ بدتْ عفويةً ووثقتْ بي، ربما لأني رجلٌ شرقيٌّ أوْ لأني منْ اليمنِ ومعروفٌ عنْ أهلِ اليمنِ الطيبةِ وسلامةُ النيةِ والكرمِ.

فقد كنتُ كريمًا معها منْ لحظةِ طلبها سيجارةً ولمْ أبادرْ بالتحرشِ بها. تخلصتْ منْ معظمِ شكوكي ونشطَ الحديثُ بيننا عنْ قضايا الفنِ والفلكلور الشعبي ورؤيتها للشرقِ. حكتْ لي أنها معجبةٌ بقصصِ ألفِ ليلةٍ وليلةٍ وبالرقصِ الشرقيِّ، كانَ لكلمةِ الرقصِ الشرقي كمفعولِ السحرِ حيثُ سارعتْ وبحثتْ عنْ أغنيةٍ واختارتْ أغنيةً «حرمتُ أحبكُ أحبكُ ما تحبنيش» للفنانةِ (وردة الجزائرية)، قامتْ بالرقصِ على إيقاعِ وكلماتِ الأغنيةِ وأمسكتْ يدي تسحبني لمشاركتها.

حطّمتُ آخرَ قيودِ الشكِ، شاركتُها الرقصَ.

يبدو أنَّ الرقصَ أشعلَ النشوةَ فينا، تلامسنا أكثرَ وأكثرَ، وتشجعتْ أنْ أمسكَ يديها، وكثرت الملامسات الجذّابة لتنتهيَ بعناقٍ دافئٍ مغرٍ.

سحبتْ نفسها بلطفٍ وهيَ مبتسمةٌ. هنا رنَّ هاتفي، رأيتُ رقمَ سليمانَ، لمْ أردْ على الاتصالِ وكأنني أعرفُ ما سيقولهُ عنْ لوليتا وأنها سعلاةٌ، وينصحني أنْ أهربَ ولا أتمادى.

عدنا لنشربَ، شربتْ كأسا كاملاً دفعةً واحدةً، أمتلكُ الشجاعةَ الآنَ للتمادي، وتغيبَ عني صورةُ السعلاةِ القبيحةِ. كانتْ الرقصةُ وصوتُ وردة الجزائرية بمثابةِ تعويذةٍ خلصتني من الخيالاتِ التي زرعها بداخلي الشابُ سليمانَ.

هنا وأنا اقتربُ أكثرَ لعناقٍ جديدٍ، فوجئتُ بها تشدُّ شعرَ رأسها ثمَّ تنزعُ باروكةَ الشعرِ، بدتْ حليقةَ الرأسِ تمامًا بدرجةِ صفرٍ، لمْ تتحولْ ولمْ تفقدْ جمالها، وكانَ وجهها يزدادُ إشراقًا أنثويًّا ورغباتٌ تتدفقُ بعنفٍ.

ابتسمتْ وهيَ تشرحُ لي الموقفُ : أخبرتكَ أني منتسبةٌ لجمعيةٍ نسويةٍ واليومِ كانَ 8مارس وشاركتْ بمظاهرةٍ نسويةٍ وتضامنٍ معَ مريضاتِ السرطانِ، حلقتْ شعرَ رأسي كاملاً أنا ومجموعةٌ منْ النساءِ وبعنا شعرنا لصالحِ المريضاتِ بالسرطانِ

كأنها تريدني أنْ أتقدمَ خطوةً نحوها. هنا عادَ هاتفي ليرنَّ ويظهرَ رقمَ سليمانَ، نظرتْ إلى الهاتفِ دونَ أنْ ألمسهُ. تقربتُ منها خطوةً، فتراجعتْ هي خطوتينِ إلى الوراءِ. تجمدتُ في مكاني وللحظةٍ، وأقلَّ منْ ثانيةٍ حدثَ ما لمْ أتوقعهُ.

تراجعتْ (لوليتا) خطوةً ثالثةً إلى الوراءِ، فكتَ حزامَ تنورتها القصيرةِ ثمَّ نزعتْ كلَّ شيءٍ. يعودُ (سليمان)ويتصلُ بي ليعلو رنينُ الهاتفِ، هذهِ المرةَ لمْ ألتفتْ إليهِ.

كأني مـعَ خياريـنِ: أنْ أردَّ عـلى هاتفِ سـليمانَ فتكبرُ صورةُ السـعلاةِ الوحـشِ المخيـف، أوْ أتقـدمَ خطـوةً نحـو لوليتا، نحـوَ الجميلـةِ واللذةِ. تقدمـتُ خطـوةً، زادتْ ابتسـامتها وتقدمتْ هـي خطوةً، مـا بيننا خطوةٌ واحـدةٌ فقط يجـبُ أنْ يخطوها أحدُنـا. وكأننا في تصويرِ فيلـمٍ رومانسيٍ، والمخرجُ يأخذُ وقتهُ ببطءِ وتروٍّ لتصويرِ فعلٍ شـديدِ الحساسـيةِ، قدْ ينتهي بفرحٍ وسعادةٍ، وربما تعقبهُ كارثةٌ مفجعةٌ.

وجـدتُ نفـسي أتقدمُ خطوةً، وأتـركُ لها القيادةَ والقـذفَ بي في أمواجِ اللذةِ. ما تفعلهُ لوليتا بي في هذهِ اللحظاتِ ليسَ منْ أفعالِ الوحوشِ، تغني وتوشـوشُ في أذني بأغنيةٍ غريبةٍ وسـاحرةٍ، تفتحُ كفَّ يدها فيظهرُ الواقي الذكريُ، تخلعُ ملابسي، تدفعني على الأريكةِ وتحلقُ بي إلى لذةٍ مترفةٍ.

فعلنا الحبَ وبقينا في عناقٍ طويلٍ.

أعتقدُ أنَ كلَّ شيءٍ سيسـتمرُ على ما يرامُ وأنَّ ما فعلنا سـيهدمُ الشـكَّ وسـيهدمُ خرافةَ السعلاةِ. فوجئتُ بلوليتا تسحبُ نفسها منْ هذا العناقِ، تنهضُ وتركضُ مسرعةً إلى الحمامِ وهيَ عاريةٌ تمامًا.

لمْ تقلْ لي كلمةً، سـمعتُ سعالَها وصوتها وهيَ تتقيأُ، ناديتها إنْ كانتْ تريدُ المسـاعدةَ. يعودُ الهاتفُ ليرنَّ ويظهرَ رقمَ سـليمانَ للمرةِ الخامسـةِ أوْ السادسةِ وأنا أتجاهلهُ.

للمـرةِ السادسـةِ أوْ السـابعةِ وأنا أنتظرُ مفاجـأةً ما منْ العيـارِ الثقيلِ، وكأنَّ قـراءتي وبحثي عـنْ الخرافاتِ تجعلني في حالـةِ ترقبٍ وخاصةٍ هذهِ الليلةَ وبهذهِ المصادفاتِ المتتاليةِ بكلِ انعطافاتها الدراميةِ.

توقفَ رنينُ الهاتفِ، توقفَ صوتُ لوليتا، للحظاتٍ يعمُّ الصمتُ.

كأنَّ لفحةَ هواءٍ تأتي لا أعرفُ مصدرها، تنطفئُ الشموعُ بشكلٍ متتالٍ لترسـمَ مشهدًا يبدأُ فيهِ نشاطُ رعبٍ جديدٍ. توجهتُ لكي أشعلَ الشموعَ لكنْ قداحتي لا تعملُ. كأنَّ البرودةَ تسري في أطرافِ أصابعِ قدمي، يدي ترتعشُ، يرنُّ الهاتفُ للمرةِ الثامنةِ أوْ التاسعةِ.

نسـيتُ أنني عارٍ، مددتُ يدي كي ألفَّ على جسدي أحدَ الشراشفِ، شـعرتُ ببعضِ الدفءِ والشرشـفِ حولَ جسـدي. توقفَ رنينُ الهاتفِ. سمعتُ صوتَ فتحةِ البابِ. جذبتني لوليتا منْ الخلفِ، طوقتني بذراعيها وهيَ تلتصقُ بظهري، أشـعرُ بدفءِ صدرها، ووجهها يلامسُ رأسي منْ الخلفِ. بحةٌ أصابتْ صوتها، ظلتْ تتنحنحُ ببطءٍ.

المطلوبَ منيَ الآنِ أنْ أسـتديرَ لتكنْ نهايةَ رعبِ هذا المشـهدِ، شعرتْ برائحةِ عطرها الياسميني، بدأتْ أستديرُ نحوها ببطءٍ، رنَ الهاتفِ اتصال منْ سليمانْ للمرةِ التاسعةِ.

النمنم

رغمَ موافقةِ (كلثم) على هذا الزواجِ وخضوعِ خطيبها (مساعد) لكلِّ شروطِها، وخاصةً عملِها كرسّـامةٍ وباحثةٍ في مجالِ الأساطيرِ والخرافاتِ، وهـذا جعلهـا تعشـقُ أفـلامَ الرعبِ وتتابـعُ مـا يُكتَبُ عنِ الشـخصياتِ الخرافيةِ، وخاصةً المرعبةَ.

بدأتْ تشتغلُ على شخصيةِ (النمنم) وتجمعُ بعضَ المعلوماتِ البسيطةِ عنـهُ الموجودةِ على الإنترنت، عرفَتْ أنَّ هذهِ الشـخصيةَ يُقالُ إنها ظهرتْ بالحجازِ، وهيَ شخصيةٌ خياليّةٌ ابتدعَها بعضُ الآباءِ والأمّهاتِ لتخويفِ أولادِهـمْ من التّأخـرِ عنِ النومِ أوْ الخروجِ واللّعـبِ بعيداً عنِ البيتِ. كلُّ شخصٍ وراوٍ يضيفُ ويزيدُ في صفاتِها.

يُصنَّفُ بأنَّهُ وحشٌ وجنيٌّ شريرٌ منْ آكلي لحومِ البشرِ، فمٌّ مُقزِّزٌ وأسنانٌ حـادَّةٌ وذيـلٌ متعفّنٌ يتدلَّى مـنْ مؤخرَتِه، و لهُ أرجلٌ تشـبهُ أرجـلَ الحمارِ، بعضُهـمْ يقولُ إنَّ لهُ أربع أرجلٍ والبعضُ يقولُ فقطْ اثنتينِ، وقدْ يتقمَّصُ ويتشـكَّلُ بصـورٍ مختلفةٍ أوْ في صـورةِ بشرٍ، يسـتدرِجُ ضحيّتَـهُ أوْ يتبعُها، خاصـةً في الأماكنِ المهجـورةِ، كشـأنِ كلِّ الكائناتِ الخرافيةِ المتوحّشـةِ، وكلُّ الحكاياتِ والأوصافِ البشعةِ عنهُ ممكنةٌ.

لمْ تكنْ (كلثم) تعرفُ (مساعد) قبلَ الخطوبةِ، هذا الزواج سيكونُ زواجًا مرتبًا بينَ عائلتينِ ثريّتَينِ منْ عائلاتِ العاصمةِ أبو ظبيَ.

اتفقتْ معهُ على تنظيمِ لقاءٍ بعيداً عنِ الأهلِ بإحدى الكافيترياتِ العائليةِ.

كانَ مُنصتًا وأظهرَ إعجابَهُ بها، ولمْ تكنْ لها أيُّ تجربةٍ عاطفيةٍ وظلّتْ تؤجّلُ مشروعَ الزواجِ رغمَ تَقدُّمِ الكثيرِ منْ العروضِ، لكنَّ العائلةَ الآنَ مجمعةٌ على ضرورةِ زواجِها، خاصةً أنها بلغتْ منَ العمرِ الخمسة والعشرين عامًا، وخطيبُها يكبرُها بسنتينِ فقطْ ويعملُ في تجارةِ عائلتِه وليسَ لهُ أيُّ هواياتٍ فنيةٍ.

قالَ لها: كانتْ عندي هوايةُ جمعِ الطوابعِ والعملاتِ في الماضي، وكنتُ حتى مشتركاً بمجلةِ (ماجد) ويعجبني متابعةُ مجلةِ (العربي) الكويتيةِ، وخاصةً تقاريرَ السّفرِ والرّحلاتِ، لكنَّ الآنَ معَ زحمةِ العملِ، نسافرُ كثيراً، وأحياناً لا أجدُ فرصةً للسياحةِ ولا للأكلِ في مطاعمَ شعبيةٍ أو التقاطِ صورٍ.

حدّثَتْهُ بصراحةٍ أنَّها تحتاجُ إلى ستةِ أشهرٍ لتُكمِلَ كتابَها القصصيَّ المصوَّرَ عنِ (النمنم)، فكأنهُ يسمعُ الاسمَ لأولِ مرةٍ وظنَّهُ نوعاً منْ أنواعِ العصافيرِ؛ لذلكَ وافقَ على شرطِها دونَ أنْ يهتمَّ بالتفاصيلِ. وافقتْ العائلتانِ على أنْ يكونَ الزواجُ بعدَ سبعةِ أشهرٍ، وتمّتْ الخطبةُ رسمياً.

تملـكُ (كلثم) ما يشـبهُ الجناحَ الفخـمَ الخاصَّ بها ويحتـوي على غرفةِ نـومٍ ومرافقَ وغرفةٍ جعلتْها مكتبَها وورشـتَها الفنيةَ، وتسـتخدمُ تقنياتٍ متعددةً لرسمِ شخوصِها وتميلُ إلى الرسمِ بقلمِ الرصاصِ وكذلكَ الرسمِ بالفحمِ والألوانِ المائيةِ والكولاجِ وتسـتخدمُ الحاسوبَ. وقدْ فازتْ بعدّةِ مسـابقاتٍ على مسـتوى إمـارةِ «أبـو ظبيَ» والمسـتوى الوطنـي، ولمْ تكنْ راضيـةً جـداً عنْ عملِها فهيَ ابنةُ عائلةٍ ثريةٍ، تشـعرُ أحيانـاً بالملَلِ منْ كلِّ شيءٍ، وقدْ قطعتْ تواصلَها معَ صديقاتِ الجامعةِ وتريدُ أنْ تُحقّقَ شـيئاً ما بجهدِها دونَ مجاملاتِ الجوائزِ.

كتابُها عنِ (النمنم) سيكونُ أولَ إنجازٍ لها؛ لذلكَ فهيَ لا تريدُ مساعدةً مـنْ أحدٍ. تعـدّدتْ ردودُ أفعالِ أهلِها حولَ هذا المشروعِ؛ فوالدتُها سـيّدةٌ تخـافُ مـنْ ظلِّها، وحاولـتْ أنْ تثنيها عنِ النمنم وتقـترحَ عليها أنْ تعملَ كتاباً عنِ الزهورِ أوْ أسماكِ الزينةِ الملوّنةِ. المهمُّ ما تريدُ «الجنّ بالبيتِ»!

يظـلُّ والدُها يضحكُ على زوجتِه وهيَ ترتجفُ منَ الخوفِ، ولا يُبدي رأيَهُ.

وكثـيراً ما يـردِّدُ: أميرتُنـا كلثم، خلوها تعمـلُ ما تريدُ، ابنتـي عاقلةٌ، وهذا مجرّدُ رسمٍ.

سـألَها وعرضَ عليها أكثرَ مـنْ مرّةٍ أنْ يتعاقدَ معَ شركـةٍ عالميّةٍ خاصّةٍ

تصمّمُ وتنفّذُ لها ما تريدُ، وكثيراً ما يكرِّرُ قولَهُ: «لا تتعبينَ نفسَكِ، الفلوسُ تجيبُ لبنَ العصفورِ، والكتابُ المهمُّ يكونُ باسمِكِ.»

تَرفُضُ كُلَّ هذهِ العروضِ المُغريةِ وتَقضي ساعاتٍ طويلةً في البحثِ والمحاولةِ لتصلَ إلى شكلٍ يعطي مدلولاتِهِ الميتافيزيقيةَ والاجتماعيةَ، وينقلُ تجربةً جديدةً مبتكرةً تكونُ هيَ مبدعتَها.

بدأتْ كلثم تُجهدُ نفسَها وتَسهرُ إلى ساعاتٍ متأخّرةٍ، وهنا كانتْ بدايةُ بعضِ الظواهرِ الغريبةِ، ثمَّ بدأتْ تتسارعُ تطوّراتُها لتصلَ إلى حدِّ الرعبِ.

تطلُّ إحدى نوافذِ غرفتها على حديقةِ البيتِ المليئةِ بالأشجارِ الظليّةِ وبعضِ أشجارِ النخيلِ، وأنواعٍ كثيرةٍ منَ الورودِ والزّهورِ.

كانَ (والدُها) في شبابِهِ منْ هواةِ تربيةِ أنواعِ الطيورِ والعصافيرِ النادرةِ، ورغمَ مشاغلِه التجاريةِ إلّا أنَّهُ حافظَ على هذهِ الهوايةِ قدرَ الإمكانِ، وصمّمَ جزءًا منَ الحديقةِ لهذهِ الهوايةِ، ووظّفَ لها (ميراجْ)، وهوَ رجلٌ هنديٌّ في الخمسينياتِ منْ عمرِهِ، يحبُّ الطيورَ والعصافيرَ ويولِيها كلَّ اهتمامِه. هوَ رجلٌ قليلُ الكلامِ، وبعضُ تصرّفاتهِ غريبةٌ؛ يقضي معظمَ وقتِه في ذلكَ الجزءِ منَ الحديقةِ، وهذا الجزءُ لا يَبعُدُ كثيرًا عنْ غرفةِ كلثم، وهيَ تستمتعُ بسماعِ غناءِ هذهِ العصافيرِ وتغريدِ الحمامِ كلّما فتحتْ نافذتَها، خاصةً في الصباحِ وعندَ الغروبِ.

فوجئتْ (كلثم) ذاتَ ليلةٍ، وبينما هيَ منهمكةٌ بالرسمِ، سمعتْ بعضَ الضجيجِ وكأنَّ شيئًا يصطدمُ بنافذتِها، فتوجّهتْ لترى ما يحدثُ.

تجمّدتْ في مكانِها وهيَ تشاهدُ حمامةَ (موريشيوس الورديةِ) تصطدمُ بنافذتِها، كأنَّ أحدَهم يمسكُ بها ويرميها بقوةٍ فتصطدمُ بالنافذةِ، ثمَّ يعيدُ إمساكَها ويعيدُ رميَها، فتهشّمَ رأسُ الحمامةِ وجناحاها.

سارعتْ (كلثم) لفتحِ النافذةِ، فسقطتِ الحمامةُ مُضرَّجةً بدمائِها وسطَ الغرفةِ.

صرختْ وركضتْ خارجَ غرفتِها، نهضَ الجميعُ وهرعوا إلى الغرفةِ. اغرورقتْ عينا الأبِ بالدموعِ وهوَ يرى حمامتَهُ المفضّلةَ ميتةً وتسبحُ في بركةٍ منْ دمِها.

يعملُ (ميراج) في حديقةِ الطيورِ منذ أكثرَ منْ عشرينَ عامًا، ومنَ النادرِ جدًّا حدوثُ حادثةٍ كهذه. يُعطي ميراجْ كلَّ وقتِه للعملِ ولا يأخذُ إجازاتٍ.

أخذَ (الأبُ) جسدَ الحمامةِ الورديةِ، ولفّها في شالِه الأبيضِ، وذهبَ ليدفنَها في الحديقةِ. ظلَّ (ميراج) متجمّدًا لا يفهمُ كيفَ حدثَ هذا، ومنْ أينَ خرجتِ الحمامةُ الورديةُ لتموتَ هذهِ الميتةِ الشنيعةِ.

سـارعَ (ميراج) ليتأكّدَ منْ عدمِ وجودِ مشـكلةٍ في السياجِ الذي يحمي هذهِ الطيورِ، فوجدَ كلَّ شيءٍ طبيعيًّا، ولا يوجدُ دخيلٌ أوْ متطفّلٌ.

يعمـلُ في هـذا البيـتِ أكثرُ مـنْ عشرينَ شـخصًا، وهمْ يعملـونَ منذُ سـنواتٍ طويلةٍ، وتتميّزُ هذهِ العائلةُ بمعاملتِها الجيدةِ معَ هؤلاءِ. منْ هذهِ الليلةِ بدأتْ تتكاثرُ الأحداثُ الغريبةُ.

بعدَ أسـبوعٍ منْ حادثةِ الحمامةِ، وذاتِ صباحٍ، فوجئتِ العائلةُ بجسـدِ البستانيِّ (عمرانْ) يتدلّى منْ شجرةٍ عاليةٍ.

حقّقتِ الشرطةُ ووصلتْ إلى نتيجةٍ أنهُ انتحارٌ. كان البستانيُّ (عمرانْ)، منْ أصولٍ باكستانيةٍ، رجلًا بشوشًا ومرحًا، وكان من المفترضِ أنْ يسافرَ بعدَ أيامٍ إلى قريتهِ ليُزوِّجَ ابنتهُ الكبرى.

أعدَّ للسفرِ عدّتَهُ ومنحَتهُ العائلةُ الكثيرَ منَ الدعمِ وهدايا للبنتِ.

بعدَ أسـبوعٍ منهكٍ منْ تحقيقـاتِ الشرطةِ في قضيةِ انتحارِ الباكسـتانيِّ وإغلاقِ الملفِّ، تمَّ إرسـالُ جسدهِ والأشياءِ التي اشتراها، ومبلغٍ منَ المالِ إلى عائلتِه في باكستان.

قرّرَ والدُ كلثم منحَ نفسـه وعائلته أسبوعَ سياحةٍ إلى باريسَ للخروجِ منْ هذهِ الأجواءِ المرتبكةِ، سـافرَ معهمْ (مسـاعدٌ)، خطيبُ كلثم، ليكونَ بجانبِها ويتقرّبَ منها أكثرَ.

ذاتَ مساءٍ، كنتُ معَ صديقتي (سونيا) نتجولُ قربَ ساحةِ الحريةِ بجوارِ برجِ إيفلْ. لمْ أكنْ أعرفُ(كلثم) ولا قصتَها، وحدثَ تعارفُنا محضَ مصادفةٍ.

في ذلكَ المساءِ كانتْ (كلثم) معَ خطيبِها في نفسِ المكانِ بساحةِ الحريةِ، فوجئتْ كلثم بصراخِ امرأةٍ (غجريةٍ بولنديةٍ)، وكانتْ تشيرُ إليها وتقولُ كلامًا غيرَ مفهومٍ.

دعتني (سونيا) أنْ نقتربَ، فرأيتُ الرعبَ في وجهِ كلثم، و(الغجريةَ) تركضُ حولها وتولولُ.

لحسنِ الحظِ، كانتْ (سونيا) تتحدّثُ اللغةَ البولنديةَ، فسارعتْ لتمسكَ بالغجريةِ وتتحدّثَ إليها. اقتربنا وكنتُ بجوارِ (كلثم)، فبدأتْ (سونيا) تترجمُ ملخّصًا لكلامِ الغجريةِ ووجّهتْ كلامَها إلى كلثم: تقولُ لكِ هذهِ العجوزُ إنَّهُ يُلاحقُكِ، الغولُ البشعُ، وستكونُ المعركةُ معهُ صعبةً.

تجمّدتْ (كلثم) في مكانِها وظلّتْ صامتةً لا تدري ما تقولهُ، أمسكَ (مساعد) بيدِها يحثّها على مغادرةِ المكانِ.

قامتْ (سونيا) وأعطتْ الغجريةَ مبلغَ عشرينَ يورو وطلبتْ منها أنْ تدعَ كلثم، فأخذتْ (الغجريةُ) المالَ، ثمّ سارعتْ بتركِ المكانِ وانطلقتْ تركضُ وتصرخُ: ويل ـ كو ـ واكي وكلامٍ غيرِ مفهومٍ.

طلبتْ (كلثم) منْ (سونيا) الحديثَ وقبلتْ دعوتَها إلى أحدِ المقاهي، وهنا تمّ التعارفُ بيننا.

جلسنا بمقهى قريبٍ في حيِّ برجِ إيفلْ، قدّمتني سونيا وقدّمتْ نفسها: أنا سونيا، طالبةٌ ماجستير في أدبِ أوروبا الشرقية، وأتحدّثُ البولنديةَ، وهذا حميد، كاتبٌ وفنّانٌ تشكيليٌّ يمنيٌّ يقيمُ هنا منذ زمنٍ طويلٍ.

هدأتْ رجفةُ (كلثم)، وعرفتنا بنفسها: أنا كلثم، رسامةٌ إماراتيةٌ، وأعملُ على مشروعِ كتابٍ عنْ شخصيةٍ خرافيةٍ اسمها النمنم، وهذا خطيبي مساعدٌ، يعملُ بالتجارةِ. أشكركم لما فعلتموه معنا. لو تسمحين لي يا سونيا، أريد أنْ تخبريني بكلِّ ما قالتهُ تلكَ الغجرية.

سونيا: كما قلتُ لكم في السابق، تحذِّركم الأساطيرُ منْ الغولِ وذكرتْ (ويل كو واك)، وهو غولٌ مرعبٌ، مخلوقٌ أسطوريٌّ بولنديٌّ مخيفٌ، يشبهُ أساطيرَ الرجلِ الذئبِ الموجودةِ في الكثيرِ من الثقافاتِ حولَ العالمِ. وكما تعلمونَ، يُقال إنَّ هذهِ الكائناتِ تتحوّلُ إلى وحوشٍ شبيهةٍ بالذئابِ في ليلةِ اكتمالِ القمر.

صمتتْ (كلثم) للحظاتٍ وكأنّها تقارنُ بينَ (النمنم) والغولِ البولنديِّ (ويلْ كو واك). ثارت الكثيرُ منَ الأسئلةِ في رأسِها: لا أفهمُ كيفَ عرفتْ هذهِ الغجريةُ أنّي أبحثُ عنِ الشخصيةِ الخرافيةِ (النمنم)، ولماذا نطقتْ بكلمةِ «ويل ـ كو ـ واك»؟

لمْ أكنْ أعرفُ شيئًا عنْ هذا الكائنِ الأسطوريِّ البولنديّ! هلْ نستطيعُ إيجادَ هذهِ المرأةِ لنسألها بعضَ الأسئلةِ؟

تدخلتُ في الحديثِ وقلتُ: تقريبًا، مثلُ هذهِ الكائناتِ الخرافيةِ توجدُ في كلِّ الثقافاتِ الإنسانيةِ. مثلاً عندنا في اليمنِ يُسمّى (الطاهش) أوْ (طاهش الحوبان)، وتوجدُ مجموعةٌ قصصيةٌ بعنوانِ «طاهشْ الحوبانْ»للكاتبِ اليمنيِّ زيد مطيع دماج، أظنُّ أنّهُ نشرَها لأوّلِ مرةٍ في عامِ 1973. وحتى عندنا في مدينتي بتهامة يوجد غولٌ وجنّيٌّ مخيفٌ جسدُه مطليٌّ بالحناءِ، وفي مؤخرتهِ ملعقةٌ، وهو مخيفٌ ومرعبٌ.

هزّتْ كلثم رأسَها وقالتْ: نعمْ، قرأتُ عنِ الطاهشِ في اليمنِ، ويوجدُ تشابهٌ بينهُ وبينَ النمنم. تقريباً، تأثرنا بالكثيرِ منَ الخرافاتِ اليمنيةِ بحكمِ التقاربِ الجغرافيِّ وقدمِ الحضارةِ اليمنيةِ.

تدخلتْ سونيا وقالتْ: حتى عندنا في الجزائرِ حكاياتٌ خرافيةٌ كثيرةٌ عنِ الغولِ، ومنها الغولُ العاشقُ، وربما حكايةُ الجميلةِ والوحشِ هيَ مأخوذةٌ من حكايتنا.

ظلَّ (مساعد) صامتًا ومنشغلاً بهاتفهِ، ثمَّ استأذنَ ليردَّ على بعضِ الاتصالاتِ.

تحدّثتْ وأخبرتنا عنِ الأحداثِ التي وقعتْ في بيتِها، وخاصةً موتَ

الحمامةِ الورديةِ النادرةِ وانتحارَ البستانيِّ الباكستانيِّ، وفزعها منْ مشهدِ رؤيتِهِ مشنوقاً ومعلقاً على شجرةٍ كبيرةٍ ليسَ بعيداً منْ نافذتِها، وكلَّ هذا سببَ لها الكثيرَ منَ الكوابيسِ والتوترِ.

والآنَ هذهِ (الغجريةُ البولنديةُ) تزعمُ أنَّ (النمنمَ) يطاردها، وكأنّها تتساءلُ: هلْ سأقعُ ضحيةً لهُ مثلما فعلَ الغولُ العاشقُ في الحكايةِ الجزائريةِ؟ تحدّثتْ عنْ نفسها وكأنّها تفعلُ ذلكَ لأوّلِ مرةٍ.

وقالتْ: ليسَ لديَّ أصدقاءٌ ولا صديقاتٌ بمعنى الصداقةِ القويةِ، كانتْ أختي الكبرى مقربةً لي، ولكنها تزوجتْ وسافرتْ معَ زوجها إلى أمريكا وانشغلتْ بحياتِها الجديدةِ. ولي أخٌ كبيرٌ يعملُ بالتجارةِ معَ والدي، وأمي تشغلُ نفسها بالتسوقِ ومناسباتِ المجاملاتِ. والدي أكثرُ شخصٍ يدعمني، ولكنهُ أيضاً مشغولٌ بأعمالهِ، وفي بيتنا ما يقربُ منْ عشرينَ شخصاً يخدمونَ في الحديقةِ والتنظيفِ والطبخِ وغيرِ ذلكَ، والجميعُ مشغولٌ بعملهِ، وحتى خطيبي لا يستطيعُ أنْ يجلسَ معي نصفَ ساعةٍ بسببِ أعمالهِ وتجارتهِ.

أمسكتْ سونيا بيدِها وطمأنتْها: صدفةٌ خيرٌ منْ ألفِ ميعادٍ، نرحبُ بصداقتِك، ويا ليتَ غداً تزورينَ المعرضَ التشكيليَّ الذي يقيمُه حميد حالياً في باريس، نتبادلُ أرقامَ الهواتفِ، وأيِّ وقتٍ تأتينَ إلى باريسَ نرحبُ بكِ.

قبلتْ (كلثمُ) الدعوةَ ووعدتْ أنْ تأتيَ لوحدها وأنْ نخرجَ جميعًا ونتناولَ العشاءَ معًا بعدَ المعرضِ.

تتميزُ (سونيا) بالمرحِ والفكاهةِ وخفةِ الدمِ، وبدأتْ تحكي بعضَ الفكاهاتِ المضحكةِ للخروجِ منَ الجوِّ المتوترِ وكلامِ الغجريةِ والحديثِ عنِ الجنِّ والأشباحِ والغولِ.

في اليومِ التالي، ومعَ الثالثةِ ظهرًا، حضرتْ (كلثمُ) إلى معرضيَ التشكيليِّ المتواضعِ قربَ حيِّ سان ميشيلْ.

بدتْ متألقةً ومشرقةً، ولمْ تكنْ تلبسُ غطاءَ الرأسِ، ولفّتْ وشاحاً حريرياً حولَ رقبتِها. سارعتْ (سونيا) بالترحيبِ، وبقيتُ مبتسماً ومتجمداً للحظاتٍ وأنا أتأملُ جمالَها الأنيقَ، مدتْ يدَها تصافحني وتباركُ لي.

بدأنا بجولةٍ لمشاهدةِ اللوحاتِ، وفوجئتُ بها أنّها ظلّتْ واقفةً أمامَ لوحةٍ صغيرةٍ تُظهرُ مخلوقًا أوْ كائنًا غريبًا، لا أدري كيفَ تخيّلتُهُ. ويبدو قصيرَ القامةِ برأسٍ يشبهُ رأسَ قطٍّ، ولكنهُ ليسَ بقطٍّ، أوْ كأنّهُ يشبهُ طائرَ البومِ بعينينِ واسعتينِ وجسدٍ يشبهُ جسدَ إنسانٍ. ظلّتْ كلثمُ تحدّقُ في اللوحةِ وهيَ في حالةِ جمودٍ

تدخلتْ سونيا وقالتْ: كأنّهُ قطٌّ أوْ بومٌ أوْ مخلوقٌ خرافيٌّ، لكنهُ ليسَ بشعًا

هـزّتْ كلثمُ رأسَـها: قدْ يُخيّـلُ لمنْ يحـدّقُ في عينيهِ أنّها تريـدُ أنْ تحكيَ أشـياءَ كثيرةً، سـاقتني هـذهِ اللوحةُ وكأنَّ هذا الشـكلَ يقـرّبُ لي صورةَ النمنمْ، وكأنّهُ كانَ في مخيلتي، لكنّي فشلتُ في رسمهِ.

قلتُ لها: حتى أنا حاولتُ أنْ أعيدَ رسمهُ على لوحاتٍ كبيرةٍ وفشلتُ. لا يهمّكِ، خذيها هديةً.

هزّتْ رأسَها رافضةً: أرجوكَ، اسمحْ لي أنْ أدفعَ قيمتَها.

تدخلتْ سـونيا بروحِها الفكاهـيِّ:أوّلُ لوحةٍ تُباعُ في المعرضِ، أغلبُ الـزوارِ يتفرّجـونَ ويذهبـونَ... ادفعي مـا تحبينهُ، حميد لا يضـعُ للوحاتهِ سعرًا.

مدّتْ (كلثمُ) لي خمسَ ورقاتٍ منْ فئةِ المئةِ يورو وقالتْ: أعتذرُ، لديَّ الآنَ فقطْ هذا المبلغُ، هيَ تستحقُّ أكثر.

تراجعتُ خطوةً إلى الوراءِ وأنا أعتذرُ عنْ قبولِ المبلغِ، لكنها سارعتْ بدسِّ المبلغِ في جيبي.

بدأتْ (سونيا) بتجهيزِ اللوحةِ، وتابعتْ كلثمُ التجولَ وأخذتْ تلتقطُ صورًا لبعضِ اللوحاتِ التي أعجبتها.

تطوَّرتْ صداقتنا معَ كلثمَ سريعًا، ورأيتها تضحكُ لنكاتِ سونيا.

سألتني (كلثمُ) بعضَ الأسئلةِ، واستمعتْ لتحليلاتِها لبعضِ لوحاتي، ثمَ غادرنا بعدها لنتجوَّلَ في حيِ سان ميشيل والحيِ اللاتيني.

كانت كلثمُ تعرفُ باريسَ وتزورها باستمرارٍ، وتتحدثُ قليلًا بالفرنسيةِ، لكنَّ لغتها الإنجليزيةَ ولكنتها مدهشةٌ.

اختارتْ (كلثمُ) أنْ يكونَ العشاءُ بمطعمِ (سيلفا)، الذي يُقدِّمُ أطباقًا منْ أمريكا اللاتينيةِ، ويختصُّ بأطباقِ اللحمِ البقريِّ وأطباقِ البطِّ معَ الأرزِ، بالإضافةِ إلى مجموعةٍ متنوعةٍ منَ المقبلاتِ.

اختارتْ طاولةً طويلةً وطلبتْ الكثيرَ منَ الأطباقِ والمشروباتِ، وكرَّرت عدةَ مراتٍ أنها تشكرنا على هذهِ الصداقةِ، وقالتْ بفرحٍ: أنا ليلةُ الأمسِ نمتُ نومًا لطيفًا وعميقًا دونَ كوابيسَ مزعجةٍ، ونفسيتي الآنَ مفتوحةٌ للأكلِ، منْ شهورٍ عديدةٍ وأنا شبهُ فاقدةٍ للشهيةِ... سنأكلُ كلَّ هذا، وإنْ أحببتمْ نطلبُ المزيدَ.

قلتُ لها ممازحًا: لا تقولي هذا، عندنا سونيا تباركُ اللهُ عليها شهيتها دومًا مفتوحة، قدْ تخسريننا بعدها وتَهربينَ منْ صداقتنا.

ضربتني سونيا على كتفي وهيَ تضحكُ: أنا الحمد لله ممكن آكل أربعَ أوْ خمسَ وجباتٍ لكنَّ وزني هوَ هوَ، ستين كيلو، لا يزيدُ ولا ينقص.

ثمَ أشارتْ سونيا إليَّ والتفتتْ لتنبهَ كلثمَ: على فكرةٍ، هوَ طباخٌ ماهرٌ،

خاصـةً بالأطبـاقِ اليمنيـةِ؛ يـا ويلي، يا ويـلي على اللحـمِ الحنيـذِ التهاميِّ والسحاويقْ والشفوتْ.

ضحكتْ كلثمُ وطمأنتْ سونيا:ولا يهمكِ، أنا هنا خمسةُ أيامٍ إضافيةٍ، ولكما كلَّ يومٍ عزومة.

أمسـكتْ سـونيا بيدها وهتفتْ: كلثمُ، منقذةُ الجوعى البسطاء، نحنُ معكِ ولا يهمكِ، نوافـقُ على كلِّ عزوماتكِ، ولكنْ ليسَ بالمطاعمِ الغاليةِ جدًّا حتى لا تخربي جيبكِ ونخرّبُ تقشفنا الإجباري!

ضحكنا، ثمَ جاءَ الطعامُ، رأيتُ (كلثمَ) تأكلُ بشـهيةٍ جيدةٍ، وتبتسمُ، تارةً تنظرُ لي وتارةً تنظرُ إلى سونيا، وكأنها تريدُ أنْ تعرفَ طبيعةَ علاقتنا.

تشجَّعتْ وسألتنا: أنتما معَ بعضٍ؟

بقيتُ صامتًا، بينما ابتسـمتْ سـونيا وردَّتْ:نحنُ معَ بعضٍ، ومشٌ معَ بعضٍ. هوَ يسكنُ خارجَ باريس، وتعارفنا قبل مدةٍ قريبةٍ، وتلكَ الكيمياءَ كـما يقولونَ تشـتغلُ، وكما تعرفينَ، حبـلُ الفنانِ قصير، يـراك الفنانُ وقدْ يُعجـبُ بكِ ويكتبُ فيكِ الشـعرَ والعشـق، لكنْ ليـسَ مضمونًا أنْ يظلَّ يكتبُ فيكِ فقط.

ابتسـمتْ كلثمُ وقاطعتها:العشـقُ جميلٌ، خاصةً عشـقُ فنانٍ وشاعرٍ، أكيد سيخلدكِ في قصائدهِ.

قاطعتها سونيا بمرحٍ: على فكرةٍ، هوَ مثلكِ صارَ لهُ شهورٌ يبحثُ في التراثِ والفلكلورِ والشخصياتِ الخرافيةِ، خاصةً في اليمنِ والخليجِ العربيِ، ومرةً يذهبُ للبحثِ في خرافاتِ الهندِ وأمريكا اللاتينيةِ، ويكتبُ قصصًا وسيناريوهاتٍ... يا ستّ، هذا الرجلُ عايشٌ في فوضى.

بقيتُ صامتًا أتابعُ هذا النقاشَ الذي لمْ أتوقعهُ حولَ شخصيٍ البسيطِ.

ثمَ سألتني كلثمُ: سونيا، حلوةٌ ولطيفةٌ ومرحةٌ، ويبدو أنها تحبك.

كان يجبَ أنْ أردَّ بردٍّ لطيفٍ ومقبول، فقلتُ لها: سونيا جميلةٌ وأنيقةٌ، وأنا كذلكَ نحبها.

كأنَّ (كلثمَ) شعرتْ أنها تدخلتْ أكثرَ في خصوصياتنا رغمَ أنَّ تعارفنا كانَ حديثًا، وبدتْ وكأنها ترغبُ في الخروجِ منْ هذا الموضوعِ.

فوجئنا بها تعرضُ علينا دعوةً إلى أبو ظبيَ، لتساعدنا في الاشتراكِ معها في إعدادِ كتابِها المصوَّرِ عنِ النمنمْ.

مضتْ خمسةُ أيامٍ ونحنُ نلتقي ونتجولُ ونتحدثُ عنْ مشروعنا المشتركِ؛ أنا أساعدُ كلثمَ في كتابةِ السيناريو، و(سونيا) تترجمُ إلى الفرنسيةِ، بحيثُ يصدرُ الكتابُ بالعربيةِ، الإنجليزيةِ، والفرنسيةِ.

تعرفنا على (والدِ كلثمَ)، الذي طلبَ منا أنْ نحررَ كتابًا عنهُ وعنْ ذكرياتهِ، خاصةً ولعهِ بالطيورِ والعصافيرِ النادرةِ، وحكى لنا أنهُ كانَ

رجلاً بسيطًا ونجحَ ليصبحَ رجلَ أعمالٍ ناجحٍ، وكانتْ انطلاقتهُ منَ الصفرِ.

تحددَ موعدُ سفرنا، أنا وسونيا، بعدَ أسبوعٍ منْ مغادرةِ كلثمَ.

بدأنا نُعدُّ العدةَ لهذهِ الرحلةِ، والاستعدادِ إلى أنْ ننهيَ عملنا. بعدَ يومينِ فقطْ منْ مغادرةِ كلثمَ باريس، اتصلتْ بنا لتخبرنا بتقديم موعدِ سفرنا، وعلينا أنْ نصلَ عاجلًا خلالَ 12 ساعة، كانتْ مفاجأةً لكنها مقلقةٌ.

فورَ تلقي الخبرِ، توجهنا إلى المطارِ مباشرةً، وانتظرنا ثلاثَ ساعاتٍ، ثمَّ حلقتْ بنا الطائرةُ متجهةً إلى أبو ظبي.

رأيتُ القلقَ في وجهِ (سونيا)، وظلتْ صامتةً ونحنُ في المطارِ. قبلَ وصولنا بساعةٍ، قالتْ لي: هلْ تظنُّ أنَّ كلثمَ بخيرٍ أوْ اشتاقتْ لك؟

احتضنتها بذراعي وقلتُ: هيَ إنسانةٌ لطيفةٌ، وما بيننا هوَ العملُ والصداقة، وكلُ حديثنا كانَ بحضوركِ ومشاركتكِ، وأرجوكِ بلا غيرة، هيَ مخطوبةٌ، ولمْ أفكرْ في أمورٍ أخرى.

كأنها أعادتْ التفكيرَ، ثمَّ قبَّلتني وقالتْ:أنتَ شيءٌ مهمٌ في حياتي، وأتمنى ألا أخسرك.

وصلنا بحدودِ العاشرةِ ليلاً إلى أبو ظبي، وكانَ في انتظارنا سائقهم،

والـذي نقلنا إلى إحدى الشـققِ السـياحيةِ. تناولنا العشـاءَ وكنـا في حالةٍ كبـيرة مـنْ الإرهاق، وضعـتُ رأسي على السّريـرِ وبدأتُ في النـومِ، لكنَ (سونيا) أبدتْ رغبةً جامحةً في ليلةِ ملذاتٍ، فكانتْ ليلةُ عناقاتٍ ممتعةٍ.

في العـاشرةِ صباحاً منْ اليومِ التالي، وبعد تناولِ الفطورِ، جاءَ السـائقُ ليقلنا إلى بيتِ كلثم.

وصلنـا وكانـت تنتظرنـا في الحديقـة، رحبتْ بنـا وهيَ تـرددُ بصوتٍ مرتجفٍ: عادَ النمنم بقوةٍ مرعبةٍ، تعالوا أريكمْ ماذا فعلَ.

قادتنـا إلى حديقـةِ الطيـورِ التـي لا تبعـدُ كثيراً عـنْ نافذتهـا، وكانتْ المفاجأةُ!

مـا شـاهدناهُ كانَ مرعبًاا؛ حيثُ وجدنـا بقايا بعضِ الطيـورِ والحمائمِ وكأنَ وحشًا مفترسًا تلذذَ بتشويهِ هذهِ الأجسادِ الجميلة.

كامـيراتُ المراقبـةِ لمْ ترصـدْ دخـولَ أيِّ دخيـلٍ، وكانَ حـارسُ هـذهِ الحديقةِ يبكي ويرتجفُ.

كانَ أحـدُ المحققينَ يُحقِّـقُ معهُ وتمَّ أخذهُ لاسـتكمالِ التحقيقِ. تحدثَ (المحقـقُ) إلى (والـدِ كلثم) ووضحَ لـهُ أنَّ الحارسَ وراعيَ هـذهِ الحديقةِ هـوَ منْ قـامَ بهذا الفعلِ، وسـيتمُ عرضهُ عـلى أخصائيٍّ نفـسيٍّ. فالرجلُ، وبحسبِ المعلوماتِ، محبٌ لعملهِ ولهذهِ الطيورِ، ولكنهُ يبدو مرتبكًا وربما

أصيبَ بحالةٍ نفسيةٍ أوْ لوثةِ جنونٍ؛ إذ وجدتِ الشرطةُ ملابسَ عليهَا دمُ وريشِ الطيورِ.

تحدثتْ بعدها (كلثم) إلينا وهيَ مؤمنةٌ أنَّ الفاعلَ هوَ (النمنم) وربما تلبَّس في (ميراج). وأكدتْ بقولها: ميراج يعملُ في هذهِ الحديقةِ منذُ عشرينَ سنةً، وهوَ يحبُ كلَ طيرٍ وعصفورٍ فيها، ويبتكرُ لهمْ أسماءً، ويعرفُ كلَّ واحدٍ ويقولُ إنهمْ أولادهُ وبناته. ويعتقدُ أنَّ العصافيرَ والطيورَ مخلوقاتٌ فردوسيةٍ. هوَ النمنم الذي حلَّ في جسدِ ميراج ودفعهُ لارتكابِ هذهِ الجريمةِ.

بدأتْ فكرةُ السيناريو ترتسمُ في ذهني بربطِ كلِّ هذهِ الأحداثِ الواقعيةِ والأغربِ منْ الخيالِ. عرضتُ رؤيتي وناقشناها، بدت جيدةً ومثيرةً، وتنقصها نهايةٌ جذابةٌ، ولكننا لا نعرفُ ما سيحدثُ لاحقًا.

عرفنا بعدَ ساعاتٍ أنَّ الشرطةَ تأكدتْ أنَّ (ميراج) هوَ الفاعلُ، لكنهُ ليسَ قاتلَ البستانيّ الباكستانيِّ. بدأنا ندونُ الأفكارَ ونشتغلُ عليها إلى نهايةِ اليوم. ثمَ دعتنا (كلثم) إلى العشاءِ في أحدِ مطاعمِ أبو ظبيَ الشهيرةِ. لاحظتُ أنَّ كلثم مهمومةٌ ومتعبةٌ ولا تأكلُ.

قالتْ: لا أشعرُ بشهيةٍ ولا لذةٍ للطعامِ أوْ النومِ، يمكننا أنْ نعملَ هنا لعشرةِ أيامٍ ثمَ نعودُ جميعاً إلى باريس ونكملُ العملَ هناك. أكادُ أُصابُ بالجنونِ.

أما (سونيا) فهيَ تبالغُ في الالتصاقِ بي وكأنها ترسلُ رسالةً ما بطريقةٍ مباشرةٍ إلى كلثم، رغمَ أنَّ كلثم لا تظهرُ منْ ملامحها رغبتها بي أوْ بأيِّ رجلٍ وهيَ في هذا المأزقِ.

تذكرتُ الآنَ كلامَ (الغجريةِ البولنديةِ). كنا قد بحثنا عنها في ساحةِ الحريةِ وأماكنَ أخرى في باريس ولمْ نجدها.

قلتُ لسونيا: يمكنكَ عملُ بحثٍ لمعرفةِ كيفيةِ التخلصِ منْ الغول ويل – كو – واك. ربما يكونُ كلامها صحيحاً، ربما نجدُ تعويذةً قديمةً لحلِّ المشكلةِ.

هزَّتْ كلثم رأسها موافقةً، ثمَ طلبتْ مني شيئاً آخر.

قالتْ بخجلٍ: أتسمحُ لي أنْ أسرقَ سونيا منك هذهِ الليلةَ، تنامُ عندي إذا كانَ هذا لا يضايقكما

نظرتُ إلى سونيا، ثمَّ ابتسمتْ ونظرتْ إلى كلثم وقالتْ: حاضر، أنتِ تأمرين، أنا لازلتُ حرةً نفسي.

استغربتُ لعبارتها، ضحكتْ سونيا، التصقتْ بي وهي تبتسمُ: أنا أمزحُ حبيبي، تسمحُ لي أنْ أفارقكُ الليلةَ؟

ابتسمتُ وقلتُ:طبعاً لا يضايقني عزيزتي،

وأنتِ حرةٌ في نفسكِ.

بدتْ كلثم حزينةً، وقالتْ: أعتذرُ لكم، أسحبُ كلامي، أنا لا أحبُّ أنْ أعكرَ صفوَ حياتكما.

أمسكتْ سونيا بيدها وكأنها تعودُ سونيا الصديقةَ المرحةَ، وقالتْ: أبداً، أنتِ صديقتنا الغاليةُ، وبالعكس، صداقتكِ قربتني منهُ كثيرًا.

قبلَ مغادرتنا بلحظاتٍ، تلقتْ (كلثم) اتصالاً قصيرًا جعلَ الرعبَ يملأُ وجهها.

أطرقتْ برأسها ثمَ رفعتهُ وقالتْ: ميراج انتحرَ بالسجنِ، ماذا يعني أنَّ النمنم استغلهُ ثمَ خرجَ منهُ؟ سمعتُ أنَّ قوى الشرِ تزدادُ شرًا كلما تقتلُ ضحيةً. اللهُ يسترُ وما يرجعُ يقلقُ حياتنا.

غادرنا وعدنا إلى بيتِ كلثم، وفي لحظةِ وصولنا سمعنا فوضى وصراخَ (الأم)، لا نعرفُ ماذا يحدثُ، ولكنْ ربما مصيبةٌ جديدةٌ.

عددٌ منْ الخدمِ ينزلونَ حقائبَ سفرٍ، ثمَ نزلتِ (الأمُ) وهيَ في حالةِ هلعٍ وتغطي رأسها، وتوجهتْ إلى كلثم وهيَ تصرخُ:انظري، الجنيَ الغولَ الذي ترسمينهُ أكل شعرَ رأسي. أنا مسافرةٌ إلى أختكِ في أمريكا، وعندما تتخلصونَ منْ الجنِ أرجعَ. أروحُ أتعالجُ، أمكِ الأنيقةُ صاحبةَ الشعرِ الجميلِ يمكنُ تصيرُ صلعاء بسببكِ.

غادرتْ (الأمُ)، واقتربَ (الأبُ) ليقبِّلَ كلثم وهمسَ لها: لا تقلقي،

هيَ جعلتْ منْ رأسها حقلاً لتجاربِ الدهاناتِ والكرياماتِ التي تشتريها منْ الشرقِ والغربِ.

ظلتْ (كلثم) واجمةً للحظاتٍ؛ كلامُ والدها يبدو منطقياً. أهذهِ مصادفاتٌ أمْ أنها منْ ألاعيبَ هذا الغول؟

غادرتُ، أخذني السائقُ إلى الشقةِ، وبقيتْ سونيا معَ كلثم.

زادتْ همومُ كلثم بسببَ ما حدثَ لأمها.

حاولتْ سونيا أنْ تخففَ عنها وقالتْ لها: كلامُ والدكِ منطقيٌ؛ التسوقُ لمنتجاتِ التجميلِ والعنايةِ بالشعرِ منْ أماكنَ كثيرةٍ بعضها غيرُ مضمونٍ، رغمَ أسعارها الغاليةِ، وأمكِ ربما حدثَ لها ما حدثَ... يمكنُ وجود عنصر كيمائيٍّ سبَّبَ لها حساسيةً.

حاولتْ (كلثم) أنْ تنسى كلَّ شيءٍ وتخلدَ لنومٍ عميقٍ، وعرضتْ لصديقتها أنْ تختارَ ما تحبُّ من الدولابِ المليءِ بأنواعٍ كثيرةٍ من بيجاماتِ النومِ.

بدلتْ كلثم ملابسها، ورمتْ بجسدها على السريرِ، وجهزتْ سونيا نفسها أيضًا.

سألتْ كلثم صديقتها: تحبينَ الجهةَ اليمنى أم اليسرى من السريرِ؟

اختارتْ (سونيا) الجهةَ اليسرى، وهي الجهةُ التي تحبُّها (كلثم)، لكنها تركتها من أجلِ صديقتها.

أبقتْ (كلثم) على ضوءٍ رديٍّ ناعمٍ، وعمَّ الصمتُ والسكونُ، وسرعانَ ما أخذَ النعاسُ كلثمَ وغرقتْ في نومٍ عميقٍ.

بقيتْ سونيا تراسلني لبعضِ الوقتِ، وتصفُ لي نعومةَ السريرِ والروائحَ العطريةَ في المكانِ. أنا أيضًا داهمني النومُ وكأنّي كنتُ أسمعُ صوتَ وصولِ رسائلِ (سونيا)، لكني لمْ أقدرْ على متابعتها.

لا يعرفُ أحدٌ ماذا حدثَ تلكَ الليلةَ.

نمتُ إلى الظهيرةِ تقريبًا، نهضتُ على صوتِ دقٍّ عنيفٍ لبابِ الشقةِ.

سارعتُ لفتحِ البابِ، وكانتْ (سونيا) في حالةٍ سيئةٍ، تجمعُ ملابسَها وتطلبُ مني أنْ أجهزَ حقيبتي لنرجعَ إلى باريس فورًا.

لمْ أفهمْ سببَ تصرفِها، فاتصلتُ بكلثم لمعرفةِ ما حدثَ.

أخبرتني أنها نهضتْ قبل الخامسةِ صباحًا، ووجدتْ (سونيا) بحالةٍ سيئةٍ، تنتفُ شعرَ رأسِها، حاولتْ تهدئتها ولمْ تفلحْ، ثمَّ رأتْ سونيا تعودُ إلى النومِ واستيقظتْ بالعاشرةِ وهيَ مُصِرَّةٌ على العودةِ إلى باريس، وتعتقدُ أنَّ (النمنم) قدْ نالَ منها.

حاولتُ تهدئةَ (سونيا)، لكنَّ كلَّ محاولاتي باءتْ بالفشلِ، فجهزتُ

حقيبتي، وتكفلتْ (كلثم) بتأكيدِ الحجزِ وأرسلتْ سائقها ليأخذنا إلى المطارِ.

بعدَ ثلاثِ ساعاتٍ كنا محلقينَ بالجو، ظلتْ (سونيا) عابسةً وبشعرٍ منكوشٍ.

وصلنا إلى باريس، وطلبتْ تاكسي، لكنَّ (سونيا) رفضتْ الركوبَ معي، وصرختْ في وجهي وطلبتْ مني ألّا أتصلَ بها.

أخذني التاكسي إلى محطةِ سان لازار، ومنها عدتُ إلى مدينتي. وصلتُ البيتَ، وحاولتُ أنْ أتصلَ بسونيا، لكنَّ رقمَها كان معطّلًا أوْ أنها وضعتْ حظرًا على رقمي. كذلكَ انقطعَ التواصلُ مع كلثم.

زرتُ باريس مراتٍ عديدةً، لكنْ يبدو أنَّ (سونيا) تركتْ سكنَها وربما باريس وفرنسا أيضًا. لمْ يعدْ لها حساباتٌ على وسائلِ التواصلِ الاجتماعي، وكذلكَ (كلثم)، إذ وصلني منها مبلغٌ بسيطٌ حولتهُ على حسابي، وقطعتْ التواصلَ بعد ذلك.

كلُّ ما أريدهُ أنْ أعرفَ هوَ ما حدثَ تلكَ الليلةَ بينَ سونيا والغولِ النمنم.

غافة الشهبانة

سيكونُ هذا يومَيَ الأخيرَ في العاصمةِ أبو ظبيَ. مرتْ خمسةَ أيامٍ قضيتها في حضورِ مناسبةٍ فنيةٍ ثقافيةٍ، رحلةٌ عاديةٌ، قليلةً الحكاياتِ. تعرفتْ بالأمسِ على (ريتا لوشفاليه)، صدفةٌ لطيفةٌ وخاصةً أنها فرنسيةٌ منْ إقليمِ النورمانديَ، تعملُ في شركةٍ لرعايةِ الخيولِ الأصيلةِ.

كانَ اللقاءُ قصيرًا جدًّا، لكنَ المهمَ حدوثَ هذا التعارفِ. وبعدها تبادلنا بعضَ الرسائلِ عبرَ حسابِ انستجرام. في الصباحِ الباكرِ تلقيتُ منها رسالةً وطلبتْ مني عدمَ مغادرةِ الفندقِ وأنها ستأتي لتأخذني إلى مكانٍ مهمٍ.

في أغلبِ الأسفارِ تحدثَ معي بعضُ المصادفاتِ الغريبةِ، وتتحولُ إلى قصصٍ وحكاياتٍ. لمْ أكتبْ كلَّ حكاياتي بعد، بعضها تعودُ بعدَ سنواتٍ ثمَ تبرقُ في رأسي وأزيدُ عليها منْ خيالاتي.

التاسعة صباحًا، ها أنا مستعدٌ وأنتظرُ (ريتا). رأيتُ عينيها تشرقانِ بفرحةٍ طفوليةٍ عندما علمتْ أني أسكنُ في النورمانديَ وسألتني إنْ كنتُ زرتُ مدينةَ (أونفلورْ).

قلتُ لها أني زُرتها لحضورِ بعضِ المعارضِ التشكيليةِ، فهذهِ مدينةٌ

(مونيتْ وبوديـنْ) وعـشراتُ الفنانـينَ أحبوهـا وأحبتهـمْ وأوحتْ لهمْ بلوحـاتٍ لاتـزالُ خالـدةً. عطرُ الفـنِ والأصالةِ يفـوحُ مـنْ كلِ رصيفٍ وزاويةٍ في هذهِ المدينةِ الموحيةِ بالدهشةِ والسحرِ الخلابِ.

مضـتْ نصـفَ سـاعةٍ أخـرى ولمْ تـأتِ (ريتـا) ولمْ ترسـلْ لي تخـبرني سـببَ تأخرهـا. تصـابُ بالقلقِ وأنـتَ تنتظرُ، خاصـةً عندما يقـولُ لكَ الشخصُ: خلالَ لحظاتٍ ثمَ تمرُ اللحظاتُ والدقائقُ ولا يأتي.

ربما غيرتْ رأيها وقدْ ترسلُ لي رسالةَ اعتذارٍ.

صعدتُ إلى غرفتي وجمعتُ أشـيائي ورتبتُ حقيبتيْ. سيكونُ سفري في الرابعةِ صباحًا وستقلني السيارةُ منْ الفندقِ قبلها بثلاثِ ساعاتٍ.

نزلتُ إلى باحةِ الفندقِ وتجاوزتْ الساعةُ العاشرةَ.

التقيتُ بعضَ الأصدقاءِ ودعوني للذهابِ معهم للتسـوقِ وألا أنسـى حفـلَ غـداءٍ فاخرٍ بمناسـبةِ ختامِ هـذهِ الفعاليةِ. اعتذرتُ لهـم لأني أنتظرُ شخصًا سيأتي بعد قليلٍ. بعدَ مضيِ نصفِ ساعةٍ أخرى بدأتُ أفقدُ الأملَ في أنْ تأتيَ.

لا أفهـمُ ما الذي شـدني إلى هـذهِ المرأةِ وجعلني أسـتعيدَ تذكرَ ملامحِ وجههـا ذي السـماتِ. الجـمالُ الأنثـويُ النورمانديَ يعلـو ولا يعلى عليهِ، يسحركَ وينغرسُ في أعماقِ المخيلةِ. هممتُ بالعودةِ إلى غرفتي.

هنا، وفي اللحظةِ، وجدتها أمامي.

لا أدري متى ومنْ أينَ دخلتْ؟ سارعتُ بتحيتها، تحيةٌ أقربُ إلى العناقِ. رأيتها مضيئةً، تركتْ بعضَ خصلاتِ شعرها حرةً وضفرتْ بعضَ الخصلاتِ. بدأَ الجزءُ الأعلى منْ صدرها بارزًا وعاريًا، ووضعتْ على كتفيها وشاحًا حريريًا بلونٍ رمليٍ لكنهُ شفافٌ لا يسترُ الصدرَ المكشوفَ.

اعتذرتْ لتأخرها بسببَ عملٍ طارئٍ كلفها به رئيسها في العملِ.

ثمَ فوجئتُ بها تسألني: أينَ حقيبتكَ؟ سنذهبُ إلى مدينةِ السلعِ بمنطقةِ الظفرةِ، تبعدُ 350 كم عنْ العاصمةِ أبو ظبيَ. سوفَ أعرفكُ بأجملِ صديقاتي والتي أفرُّ إليها منْ حينٍ إلى آخرَ، سنقضي يومنا هناكَ ثمَ نعودُ ونتناولُ العشاءَ وأنقلكُ إلى المطارِ.

ثمَ دفعتني لنصعدَ إلى غرفتي.

صعدنا سريعًا، أخذتْ حقيبتيْ وحقيبةَ اليدِ التي فيها أوراقي وجهازَ الحاسوبِ، ونزلنا سريعًا.

سلمتْ الغرفةَ وغادرنا بسيارتها.

إلى الآنَ، وأنا لمْ أفهمْ تفاصيلَ هذهِ الرحلةِ ولمْ أفهمْ طاعتي لهذهِ المرأةِ

رغمَ أننا لا نعرفُ بعضنا بشكلٍ جيدٍ. تصفحتُ حسابها على انستجرام ووجدتُ لها بعضَ الصورِ والفيديوهاتِ القصيرةِ معَ الخيولِ.

بدأنا نتحدثُ وكانتْ تقودُ السيارةَ، ولكنها تلمحني وتبتسم.

قالتْ لي: أتخافُ أنَ أخطفكَ؟ هذهِ مدينةٌ آمنةٌ، وشكلُها لا يوحي بالمكرِ ولا الشرِ.

ضحكتُ وقلتُ: ولا يهمكَ، سيدتي، اخطفيني إلى الأبدِ. أهلُ النورمانديَ منْ أطيبِ الناسِ في هذا الكونِ.

هزتْ رأسها، ثمَ تحدثتْ لتعطيني تفاصيلَ أكثرَ عنْ هذهِ الرحلةِ المفاجئةِ: سوفَ نذهبُ لنستظلَّ قليلاً ونجلسُ تحتَ ظلِّ شجرةٍ (غافة الشبهانة)، وهيَ ليستْ شجرةً عاديةً، بلْ واحدةً منْ أقدمِ الأشجارِ المعمّرةِ في الإماراتِ. منْ عاداتي كلَ شهرٍ أو شهرينِ أذهبُ إليها وأقضي بعضَ الساعاتِ وأعودُ. قرأتُ عنكَ أنكَ مهتمٌ بالتراثِ والفلكلورِ والحكاياتِ الخرافيةِ، فهلْ كتبتَ شيئًا عنْ هذهِ الشجرةِ؟

قلتُ لها: في الحقيقةِ لا. هذهِ الرحلةُ كانَ برنامجُنا مزدحمًا، وكنتُ قد سمعتُ بها ولكنني لمْ أجدْ فرصةً لزيارتها.

ضحكتْ، خلعتْ وشاحها ووضعتهُ بجانبها.

قالتْ: إذنَ فرصةٌ جميلةٌ أنْ نزورها معًا. أتمنى ألا يزعجكَ أني رفعتُ

معكَ الكلفةَ. نحنُ الآنَ أصدقاءٌ، سأعودُ قريبًا في عطلةٍ إلى مدينتي، وتأتي لزيارتي.

هززتُ برأسي وأنا أبتسمُ: أشكركُ على الدعوةِ، ولكنْ ما سرُّ تعلقكَ بهذهِ الشجرةِ؟ أكيدٌ أنها مهمةٌ لأهلِ البلدِ وتذكرهمْ بتاريخهمْ وأحداثٍ كثيرةٍ؟

أشعرُ وكأنَّ لديها مفاجآتٌ أخرى لي وأنَّ هذا اللقاءَ والتعارفَ سيكونُ حكايةً مميزةً.

تتزايدُ التخميناتُ في رأسي، لكني قررتُ أنْ أستمرَ، ولمْ يراودني حتى الخوفُ منْ ضياعِ طائرةِ العودةِ.

لمْ ترُدْ على سؤالي، وردتْ بسؤالٍ آخرَ: حدثني عنكَ. أعجبتني بعضُ لوحاتكَ عنْ شجرةِ دمِ الأخوينِ في اليمنِ. لا تقلق، لدينا وقتٌ لتعرفَ قصتي كاملةً.

قلتُ لها: أنا منْ الناسِ الذينَ لا يجيدونَ الحديثَ عنْ أنفسهمْ، وخاصةً أمامَ امرأةٍ جميلةٍ مثلكَ.

قاطعتني: أتراني فعلاً جميلةً؟ هذا منْ ذوقكَ. منذُ مدةٍ كبيرةٍ لمْ أسمعْ همسةً أو عبارةَ غزلٍ. شكرًا لكَ، ولكنْ لماذا أنتَ في فرنسا؟

بدأتُ أحكي ولا أتوقفُ عنْ وصولي إلى فرنسا، ثمَ إقامتي في

النورماندي للدراسةِ، وبقائي فيها، وعنْ نشاطاتي الفنيةِ والأدبيةِ المتنوعةِ، واشتياقي إلى بلدي اليمنِ، والذي لا يزالُ يعيشُ الحروبَ والانقساماتِ وفقدانَ المستقبلِ.

مضتْ الساعةُ الأولى ونحنُ نتحدثُ، هيَ تسألُ وتسألُ وأنا أجيبُ.

مضى وقتٌ طويلٌ وأنا لمْ أتعرضْ لمثلِ هذا الموقفِ، الحديثُ معَ امرأةٍ جميلةٍ تفوحُ رائحةُ العودِ الطيبِ المغري منْ شعرها وجسدها.

توقفنا لدقائقَ في إحدى الاستراحاتِ، واكتشفتُ أنها استعدتْ جيدًا للرحلةِ، وجهزتْ في صندوقِ حفظِ الطعامِ بعضَ الساندويتشاتِ وزجاجةَ نبيذٍ وبعضَ المكسراتِ والفواكهِ الجافةِ، وكذلكَ دلةَ قهوةٍ وترمسَ شايٍ.

أشعلتْ سيجارةً، وبعدها أخذتْ الأنفاسَ، مدتْ يدها لتشاركني.

عدنا لنواصلَ الطريقَ إلى مدينةِ السلعِ، بدأتْ تحكي عنْ نفسها وبقيتُ مستمعًا.

ولعلَّ أكثرَ ما أدهشني قولها: كنتُ لا أؤمنُ بالروحانياتِ، وخضتُ مغامراتٍ وخيباتٍ عاطفيةٍ كثيرةٍ، وفي إحدى الليالي، وكنتُ عائدةً إلى بيتي، وأنا لستُ في كاملِ وعيي بسببِ سهرةٍ صاخبةٍ، يبدو أني أثقلتُ ليلتها بالشربِ وتناولَ أشياءَ أخرى. قبلَ وصولي إلى زقاقِ بيتنا، شعرتُ

أنَ كلَّ شيءٍ أصبحَ مظلمًا وكأني في عالمٍ آخرَ، ثمَ ظهرَ نورٌ قويٌ وظهرَ لي ملاكي الحارسَ، كانَ بصورةِ حصانٍ أبيضٍ معَ بقعٍ ورديةٍ ولهُ عدةُ أجنحةٍ وقرنٍ جميلٍ مذهبٍ. لمْ أخفْ، كأنّي دخلتُ في حالةِ إغماءٍ. وأفقتُ بعد لحظاتٍ وكنتُ تحتَ أغصانِ غافة الشبهانة، لمْ أكنْ أعرفها منْ قبلٍ. تعرف أنَ هذهِ الشجرةَ تتكونُ منْ خمسةِ فروعٍ رئيسيةٍ ضخمةٍ، ستراها بعد قليلٍ، ستحسُّ أنَ كلَّ فرعٍ كأنهُ شجرةٌ قائمةٌ بذاتها، وكأنَّ هذهِ الشجرةَ خمسَ أخواتٍ متلاحماتٍ. ليلتها رأيتُ هذهِ الشجرةَ تعلو إلى السماءِ وتتحركُ وترحبُ بي، التقطتني بأحدِ أغصانها ورفعتني عاليًا، ثمَ أودعتني السريرَ هناكَ بمسكني.

أفقتُ بعدها وظلتْ الشجرةُ بشكلها وراحتها ماثلةً أمامَ عيني. بحثتُ عنها وعرفتُ أنها توجدُ هنا، المفاجأةُ أني وجدتُ إعلانًا لوظيفةٍ الاهتمامَ بالخيولِ، قدمتُ عليها وتمَّ كلُّ شيءٍ بسرعةٍ، وها أنا هنا منذُ ثلاثةِ أعوامٍ ولا أستطيعُ أنْ أفارقَ هذهِ الشجرةَ.

في الوهلةِ الأولى قدْ لا يصدقُ أحدٌ منطقَ أحداثِ قصةِ (ريتا)، وربما أعجزُ عنْ تصويرها سرديًا بما فيها منْ فانتازيا عجائبيةٍ، لكني رأيتُ وجهَ (ريتا) الذي تبللهُ الدموعُ وهيَ تحكي لي مبتسمةً، ترى نفسها أنها محظوظةٌ بلقاءِ ملاكها الحارسَ كما تسميهُ، والذي اختارَ لها هذهِ البقعةَ منْ الأرضِ لينشطَ روحها وتدومَ بهجتها الداخليةُ.

عادتْ لتكملَ حديثها وتقولُ: أنتمْ في الشرقِ محظوظونَ بوجودِ أماكنَ روحانيةٍ وأشجارٍ معمّرةٍ، لا أظنّها شجرةً عاديةً. هنالكَ أشياءٌ لا يمكنُ أنْ تُوصَفَ، وأنتَ في ظلِ هذهِ الشجرةِ تلمسُ جذعها، وحتى الأوراقَ التي تتساقطُ، لها جمالُها لحظةَ سقوطِها. أنتَ شاعرٌ وفنانٌ، ستفهمني أكثرَ منْ غيرِكَ.

سألتُها: أهذا سببُ اختيارِكِ لي؟

مسحتْ دموعها وابتسمتْ.

ردتْ: ملاكي الحارسُ هتفَ لي أنْ أتقربَ منكَ وآخذكَ إلى الشجرةِ.

ابتسمتُ وقلتُ لها: اشكري ملاكَكَ الحارسَ بالنيابةِ عني.

ضحكتْ وقالتْ: سأفعلُ ذلكَ، وكلَ ما طلبتهُ مني، وأنتَ أيضًا كنْ متفهمًا ومطيعًا.

كأني في صحبةِ مخلوقةٍ خرافيةٍ تصحبني إلى مغامرةٍ مثيرةٍ بالدهشةِ والتشويقِ، ولا أدري كيفَ ستكونُ نهايةَ هذهِ الرحلةِ.

بدأنا نشاهدُ الشجرةَ منْ مسافةٍ بعيدةٍ، بدتْ متحمسةً للوصولِ، ولكنْ توقفتْ السيارةُ فجأةً قبلَ وصولنا بدقائقَ إلى المكانِ، حاولتْ تشغيلها عدةَ مراتٍ، ثمَ ابتسمتْ وحضتني على النزولِ.

نزلتُ وأشارتْ إليَّ: هيا، انزلْ سنسيرُ عشرَ دقائقَ أوْ أكثرَ، الأشياءُ

الروحانيةُ يجبُ أنْ يأتيها الناسُ مشيًا على أقدامهم، لا تقلقْ بشأنِ السيارةِ، لا أظنهُ عطلاً، هذا ما يريدهُ ملاكُنا الحارسُ.

نزلتُ ومشينا، لفتُّ الوشاحَ على صدرها، انتبهتُ لعبارتها الأخيرةِ وخاصةً قولها ملاكنا بالجمعِ، شعرتُ بطمأنينةٍ جيدةٍ،راجعتُ أحداثَ الشهورِ الماضيةِ منْ حياتي وكأنها كانتْ خاليةً منْ الإثارةِ، ولمْ يكنْ فيها تعارفٌ معَ إحدى الجميلاتِ. كفنانٍ، أحتاجُ دومًا لجرعةِ فنتازيا لحدثٍ ما يهزني، لمكانٍ مثلِ هذا.

وصلنا المكانَ، دخلنا في حرمِ ظلِ الشجرةِ، ظلتْ (ريتا) ترفعُ رأسها مغمضةً العينينِ وتستنشقُ الهواءَ وكأنها تملأُ صدرها بقداسةٍ خاصةٍ.

فعلتُ كما فعلتْ، كأني الآنَ أشعرُ بشيءٍ يتغلغلُ في دواخلي ويكنسُ الكثيرَ منْ الجمودِ والوساوسِ، ملأتْ صدري بهواءٍ نقيٍ وأشياءَ أخرى لا أعرفُ كيفيةً وصفها.

طفنا حولَ الشجرةِ، التصقنا بجذوعها الندية، تمسكني ريتا منْ يدي وتطوفُ بي، تبتسمُ، كأنها تقولُ: هلْ تصدقُ الآنَ أتشعرَ بشيءٍ حيٍ لهُ قداسةٌ؟ هذهِ الشجرةُ جمعتْ أناسا وأحداثا وحكاياتٍ كثيرةً، أطعمتْ وأظلتْ وغرستْ المحبةَ. يا ترى كم منْ عاشقٍ واعدَ حبيبتهُ هنا وكتبَ فيها شعراً، كم منْ شاعرٍ أعادَ تجديدَ روحهِ وإبداعهِ هنا؟

قادتني (ريتا) إلى تجربةٍ روحيةٍ مثيرةٍ، أتأملُ طريقتها في المشيِ وملامسةِ الشجرةِ وكأنها تهمسُ لها وتسمعُ منها ترانيمَ مبهجةً. الكثيرُ منْ الناسِ يزورونَ هذهِ الشجرةَ، وربما القليلُ منْ أمثالِ ريتا منْ يفهمُ قداسةَ اللحظاتِ في ظلِ هذهِ الشجرةِ التي تكادُ تعانقُ السماءَ وتمدُّ جذورها إلى عمقِ الأرضِ.

مرتْ الساعةُ الأولى كأنها لحظاتٌ قصيرةٌ، بدتْ ريتا تشرقُ أكثرَ وأكثرَ، أوْ أني أشعرُ بشيءٍ ما نحوها، لمْ يكنْ في حديثي كلماتٌ ولا عباراتُ غزلٍ جريئةٍ.

نبتسمُ لبعضنا ولمْ يدرْ أيُّ حديثٍ بيننا في الساعةِ الأولى، فقطْ الكثيرُ منْ النظراتِ وملامساتٍ قليلةٍ بالأيادي.

في الساعةِ الثانيةِ جلستْ وظلتْ تتأملُ وتهزُّ رأسها لي أنْ أفعلَ كما تفعلُ، دخلتْ في حالةٍ منْ التأملِ وخروجٍ منْ هذا الواقعِ؛ منْ الحاضرِ والماضي، أبحثُ عنْ طفولتي، تذكرتُ شجرَ الكيانِ أوْ الكافورِ، وكانَ حوشَ مدرستي الابتدائيةِ فيهِ عدةُ أشجارٍ منْ هذا النوعِ، فهيَ ظليلةٌ ورأسُها يرتفعُ إلى 50 مترا وأكثرَ.

كأني ورفاقي كنا نشعرُ بالأمانِ ونحنُ نلعبُ ونتحدثُ عنْ أحلامنا عندما نكبرُ، كأني أرى هنا بعضًا منْ رفاقي الذين أكلتهمْ أنيابُ الحروبِ

الأخـيرةِ، كأني أرى تلـكَ الحبيبةَ التي لمْ أعدْ أراها، وهيَ تشـيرُ لي إلى ريتا وتذهبُ غاضبةً.

بقينـا في حالـةِ تأمـلٍ لأكثـرَ منْ سـاعتينِ وكأننـا تخلصنا مـنْ هزائمنا وفجائعنا السـابقةِ، نهضتْ ريتا وأمسـكتْ بيدي لنطوفَ حولَ الشـجرةِ ونودعها ونعدها أنْ نعودَ متشابكي الأصابعَ والأرواحَ.

عدنا إلى السـيارةِ، حاولتْ (ريتا) تشـغيلها لكنها لمْ تشتغلْ، ابتسمتْ ابتسامةً مطمئنةً ثمَ دعتني أنْ نجلسَ في الكراسيّ الخلفيةِ، فتحتْ صندوقَ حفـظِ الطعامِ، أخرجتْ قنينةَ النبيذِ وقطعـةً منْ الجبنِ النورمانديِّ وخبزًا أسمرَ، فتحتْ القنينةَ وأخذتْ منها جرعةً ثمَ ناولتني.

ظلتْ مبتسـمةً وقالتْ: لا تقلقُ، ستصلُ إلى المطارِ في الوقتِ المناسبِ، أعدكَ أنْ تشتغلَ السيارةُ، هذا ليسَ عطلاً، ملاكنا الحارسُ سيدعمنا بقوةٍ.

آمنتُ بما تقولهُ ولمْ أكنْ قلقًا، مرتْ سـاعاتٍ ونحنُ نتحدثُ ونشربُ، هـيَ تشربُ جرعـةً وتناولنـي فأشربُ ثـلاثَ جرعاتٍ، مالتْ بجسـدها نحوي، تشابكتْ أصابعُنا.

تعددتْ الملامساتُ اللطيفةُ.

تحدثنا عنْ الخيولِ والفنِّ وكلِ حكايةٍ تجري حكايةً أخرى.

لا ندري كيفَ مضى الوقتُ سريعًا وكأنها انتبهتْ الساعةَ العاشرةَ الآنَ.

نزلتْ وعادتْ لتركبَ في كرسيِ القيادةِ، أمسكتْ بالمقودِ وأدارتْ السيارةَ، اهتزتْ السيارةُ.

هتفتْ لي: إنها تشتغلُ، قلتُ لكَ سيكونُ كلُ شيءٍ في وقتهِ.

جلستُ بجانبها، انطلقتْ السيارةُ بنا لنتوجهَ إلى المطارِ، طوالَ الطريقِ وريتا تغني وترقصُ بكتفيها وصدرها.

وصلنا إلى المطارِ في الموعدِ المحددِ، في لحظةِ الوداعِ بقينا في حالةِ صمتٍ متقابلينِ، اندفعتْ لتعانقني وتقبلني، ثمَ سحبتْ نفسها ببطءٍ، تركتني وغادرتْ.

دخلتْ إلى المطارِ ومرَّ كلُ شيءٍ على ما يرامُ.

عدتُ إلى بيتي وأنا أحملُ حكايةً ومغامرةً جديدةً، بقيتُ متواصلًا معَ (ريتا)، نتواصلُ كلَّ ليلةٍ، تخبرني عنْ يومها وتسألني عنْ يومي، حدثتْ مفاجأةً جديدةً وانقطعَ تواصلها.

هاتفها لا يردُّ، حسابها على الأنستجرام اختفى أيضًا.

انتابني القلقُ ومضتْ الأيامُ والليالي ثقيلةٌ ومرهقةٌ، ساورني الشكُ عندما عدتُ لقراءةِ بعضٍ منْ قصصي ورواياتي المليئةَ بجميلاتٍ ونادلاتٍ، بعضهنَّ خلقهنَّ خيالي الفني، وكأنَّ (ريتا) وكلَّ ما حدثَ

ربما كانَ محضَ خيـالٍ. لا يعقلُ، كانتْ حقيقةً، عدتُ وتذكرتُ مقولتها: ملاكنا الحارسُ سيدعمنا.

مـضى أكثـرُ منْ شـهرٍ ولا جديد عـنْ (ريتـا)، ولكني مطمئـنٌ بعضَ الشيء.

في ليلـةٍ مقمرةٍ ومعتدلةِ الطقسِ، أعددتُ عشـاءً متميـزًا وعدةَ أطباقٍ يمنيةٍ وكأني أنتظرُ ضيفًا مهمًا، بدأتُ أشربَ بهدوءٍ بعدَ أنْ أشعلتْ بعضَ الشموعِ المعطرةِ.

دقَّ البابُ، نهضتُ لفتحهِ، المفاجأةُ غيرُ متوقعةٍ تحدثُ الآنَ!

ريتـا! (ريتا) بكاملِ سـحرها وبهجةِ عطرها الفـواح بالعود الأصيل، بقيتُ صامتًا متجمِّدًا.

تراجعتْ خطواتٍ إلى الوراءِ.

دخلتْ وأغلقتْ البابَ.

ظلتْ مبتسـمةً وصامتةً، بقيتُ أتأملُ وجهها للحظاتٍ، وكأني فقدتُ النطقَ، اندفعتْ نحوي تعانقني.

الجزيرة الحمراء

يسودُ السكونُ مدينةَ كونَ النورماندي في كلِّ يومِ أحدٍ. في بعضِ الأحيانِ، أشعرُ بمللٍ غريبٍ، أظلُّ جامدًا في مكاني بلا فعلٍ، وفي هذا الصباحِ بالذاتِ نهضتُ مبكرًا وبقيتُ لساعاتٍ عاجزًا عن الكتابةِ.

قررتُ أنْ أخرجَ للتجولِ، وبدأتُ منْ وسطِ المدينةِ المتميزّةِ بسوقها الشعبيِ. نهايةَ السوقِ لمْ أجدْ إلا أصحابَ بسطاتِ الفواكهِ والخضرواتِ الرديئةِ والمتعفنةِ، التي لا طعمَ لها ولا رائحةَ. سارعتُ في خطواتي للخروجِ منْ ضجيجِ الباعةِ وهمْ يغرونَ الزبائنَ ببضاعتهمْ الفاسدةِ، وكانَ أحدهمْ ينادي: كيلو الطماطمِ بنصفِ يورو!

رغمَ حموضةِ وعفونةِ بضاعتهِ، إلا أنَّ السعرَ الذي ذكرهُ جعلَ العشراتِ يتدافعونَ حولهُ.

وصلتُ إلى مقهى رصيفِ يوليو، وجدتُ مكانًا في الرصيفِ التابعِ للمقهى وطلبتُ فنجانَ قهوةٍ.

فتحتُ حقيبتي وأخرجتُ دفترًا لعلَّ فكرةً تهطلُ في رأسي، بقيتُ أنتظرُ الوحيَ الذي لمْ يأتِ، كنتُ محبطًا منْ قلةِ أفكاري وعجزي عنْ الكتابةِ.

فجأةً، وجدتُ شابًا بوجهٍ أسمرَ يقتربُ مني ويسألني: أنتَ يمنيٌّ؟

قلتُ لهُ:نعمَ، وأنتَ يمنيٌّ أيضًا؟

ضحكَ وقالَ:نعمَ، ويوجدُ هنا مجموعةُ شبابٍ، وحدثَ رهانٌ بيني وبينهمْ على أنكَ يمنيٌّ، والآنَ أنا كسبتُ ثلاثينَ يورو، تعالَ أعرِّفكَ عليهمْ.

رحبتُ بالفكرةِ، سلمتُ عليهمْ وتعارفنا، كلٌّ تحدَّثَ عنْ مدينتهِ ورحلتهِ إلى هنا. خلالَ الحديثِ، سألني أحدهمْ إنْ كنتُ أحبُّ تناولَ القاتِ.

قلتُ:نموتُ على القاتِ، لكنْ أينَ أجدهُ؟

ذهلتُ عندما مدَّ الشابُ الأسمرُ يده في جيبهِ وأخرجَ كيسًا فيهِ قاتٌ (هرريّ) يابس، مددتُ يدي وأخذتهُ.

ابتسمَ الشابُ وقالَ: خذهُ هديةً، تخزينهُ يخليكَ تكتبُ الهوايلْ.

شكرتهُ واستأذنتُ منهمْ، كأني متلهفٌ لتناولِ القاتِ بعدَ انقطاعٍ دام أكثرَ منْ 14 عامًا.

أعددتُ وجبةَ غداءٍ جيدةً بنكهةٍ يمنيةٍ وحضَّرتُ ما يلزمُ للجلسةِ وبدأتُ في تناولهِ ببطءٍ.

في البدايةِ لمْ أشعرْ بأيِّ تأثيرٍ، وبعدَ ساعةٍ وبعدَ أنْ كثرَ القاتُ في فمي، بدأتْ بعضُ التأثيراتِ وبدأتُ أكتبُ وأكتبُ.

أشعلتُ سيجارةً بدأتُ أدخنُ، وتكبرُ كرةُ القاتِ في فمي.

جعلني القاتُ أتلهفُ لشربِ الشايِ والتدخينِ.

نشوةُ القاتِ، أوْ مقدمةُ (الساعةِ السليمانيةِ)، والولوجُ فيها منْ المتاهاتِ السحريةِ التي لا ينتجها أيُّ مشروبٍ أوْ مخدرٍ؛ فالقاتُ يجعلكَ متفاعلاً ونشطًا ويتغلغلُ الكافيينُ كموجِ البحرِ ليعصفَ بالرأسِ والخيالِ.

كأنَّهُ (قاتٌ) من (بني مطر) الشهير، أوْ (شاميٌّ) منْ نوعِ «أبي مكلب» الذي يُزرع في أعالي جبال محافظةِ حجةَ اليمنية.

بعدَ ساعاتٍ طويلةٍ، أخرجتُ القاتَ منْ فمي وأعددتُ برادَ شايٍ بالحليبِ على الطريقةِ الهنديةِ بالزنجبيل والقرفة وحبِّ الهيل والقرنفل.

فتحَ القاتُ شهيتي للتدخينِ أكثرَ وأكثرَ.

كنتُ كلما فتحتُ شباكَ نافذةِ المطبخِ لا أسمعُ إلا السكونَ، كأن الجميعَ هجَروا هذهِ المدينةَ. في هذهِ المرةِ، ونحنُ الآنَ في منتصفِ الليلِ تقريبًا، بدأتُ أسمعُ صوتَ طبولٍ، هذهِ الإيقاعاتُ أعرفها وتكونُ معَ الرقصِ (التهاميِّ الزرنوقيِّ).

أسمعُ صوتَ الراقصينَ والمشجعينَ، تصفيقٌ وصراخٌ، يتعالى الصوتُ أكثرَ وأكثرَ وكأنها رقصاتُ التمسيّهِ أوْ زفافُ العريسِ الذي يكونُ راكبًا على حصانٍ أنيقٍ وهوَ يمسكُ بسيفٍ فضيٍّ وحولهُ الأصدقاءُ.

كنتُ لسنواتٍ طويلةٍ أكتبُ وأهتمُّ (بفرقةِ الزرانيقِ) ورقصاتهمْ، وقدموا في باريس ليلةً فنيةً بديعةً في عام 2008، لكنَّ تفكيري ذهبَ إلى أبعدَ منْ ذلكَ، إلى ليلةِ حضوري (عرسَ الجنِّ) حينما كانَ عمري تسعَ سنواتٍ تقريبًا.

أتذكرُ تلكَ الليلةَ، وكتبتُ تفاصيلها في شكلِ قصةٍ قصيرةٍ نشرتها بمجموعتي القصصيةِ الثالثةِ (ثقوب). أتذكرُ منْ حينٍ إلى آخرَ تلكَ الليلةَ وكنتُ أمشي معَ تمسيةِ عرسِ جارنا المدنيِّ وبيتهِ في جنوبِ المدينةِ، ولكني بعدَ ذلكَ وجدتُ نفسي وحيدًا في شمالِ المدينةِ وسطَ مُصلى العيدِ، أيْ خارجَ المدينةِ. أنقذني ليلتها أحدهمْ كانَ بدراجتهِ الناريةِ وعدتُ لبيتنا معَ منتصفِ الليلِ والكلُّ يبحثُ عني.

كانَ الصوتُ حقيقيًّا ولمْ أعدْ أحتملُ أنْ أظلَّ مستمعًا، لبستُ ملابسي وخرجتُ.

كانَ الشارعُ فارغًا، سمعتُ الصوتَ يأتي منْ ساحةٍ ومتنزهٍ محاطٍ بشجرٍ كثيفٍ، دخلتُ ذلكَ المتنزهَ والمفاجأةِ أني أرى نفسَ (التمسيّهِ القديمة). كأنهمْ ينتظرونَ قدومي، بقيتُ متفرجًا وأنظرُ حولي فلمْ يخرجْ أحدٌ منْ سكانِ الحيِّ رغمَ أنَّ الصوتَ مسموعٌ بقوةٍ. تحركوا، تحركتُ خلفهمْ، نشوةُ القاتِ معَ تأثيراتِ هذهِ الإيقاعاتِ والرقصِ بالسيفِ والخناجرِ، لمْ أعرفْ أحدًا منْ الراقصينَ ولا العريسَ الذي ظهرَ بالزيِّ التهامي اليمني.

اقتربتُ أكثرَ وتحركتُ معهمْ تاركًا كلَّ الأسئلةِ إلى حينِ تنتهي هذهِ الزفة.

بقيتُ مستمتعًا بما أشاهدهُ وأهزُّ رأسي متفاعلًا معَ الرقصاتِ وخاصةً رقصةَ المسايفةِ بسيفينِ، وهذا الأداءُ البديعُ بينَ الطبالِ والراقصِ والعازفِ على القصبةِ، وخلفهمْ خمسةُ طبالينَ يدقونَ على طبولهمْ وهمْ في قمةِ التفاعلِ، ثمَّ رقصةُ الحمريّ الخطيرةِ ويبدو الراقصُ متقنًا للرقصةِ.

كلُّ هذا جعلني أندمجُ كليًا وأتبعهمْ دونَ النظرِ لماهيةِ المكانِ. فجأةً، توقفَ كلُّ شيءٍ.

اختفوا جميعًا، بقيتُ وحيدًا تلفني عتمةٌ غريبةٌ، أدركتُ أني غادرتُ مكاني وزماني.

نظرتُ حولي، عادَ الضوءُ فالليلةُ تبدو مقمرةً، ولكنْ ثمةَ سحبٌ معتمةٌ أخفتْ القمرَ البدرَ للحظاتٍ أوْ دقائقَ. بدأتُ أنظرُ ما حولي منْ بيوتٍ حجريةٍ قديمةٍ ومهجورةٍ.

ما أعيشهُ الآنَ ليسَ متاهةً ولا قمةَ ذروةِ (الساعةِ السليمانية).

شيءٌ يفوقُ الخيالَ، بدأتُ أمشي وأحدِّقُ بالمكانِ وأحاولُ تحليلَ ماهيتهِ والجغرافيا التي أنا فيها الآن، كأني عدتُ إلى (اليمنِ) ولكنها ليستْ مدينتي التهامية. أسمعُ صوتَ ضرباتِ الموجِ يعلو وينخفضُ.

تابعتُ المشيَ بحذرٍ وبدأتُ أقرأُ (آيةَ الكرسيِّ) مخافةَ أنْ يظهرَ ذئبٌ أوْ وحشٌ أوْ جنيٌّ شريرٌ، إذن وبعد سنواتٍ طويلةٍ أقعُ للمرةِ الثانيةِ في فخِّ (عرسِ الجنِّ) ويبدو أنهمْ هذهِ المرةَ أعادوني إلى اليمنِ. تحسستُ جيبي، ولحسنِ الحظِّ أحملُ هويةَ الإقامةِ بفرنسا وبطاقةَ البنكِ ومبلغًا بسيطًا كنتُ قد سحبتهُ منْ البنكِ.

بدأتُ أرسمُ سيناريو في ذهني.

أنْ أذهبَ وأزورَ مدينتي، وبعدَ ذلكَ يمكنُ أنْ أذهبَ إلى السفارةِ الفرنسيةِ في عدنَ لطلبِ المساعدةِ.

معَ تأملي المكانِ، فهوَ أيضًا يشبهُ قليلًا الجغرافيا الإيرانيةَ أوْ ربما العراقَ. لمْ أعدْ أفهمُ شيئًا، وكلَّ ما أتمناهُ أنْ أجدَ علامةً تدلُّ على شيء.

بعدَ المشيِ لساعةٍ أو أكثر لمحتُ علمَ (الإماراتِ العربيةِ المتحدةِ)، لماذا اختارَ الجنُّ أنْ يتركونيَ هنا؟

فجأةً كأني رأيتُ شيئًا يتحرك، اقتربتُ فإذا هي امرأةٌ.

عندما رأتني صرختْ باللغةِ الفرنسيةِ: لا تقتربْ، ابقَ في مكانكَ، أنا أعملُ حاجتي.

تسمرتُ في مكاني حتى انتهتْ منْ فعلها.

بدأتْ تقتربُ مني وتسألني: منْ أنتَ؟

أجبتها باللغةِ الفرنسيةِ وأخبرتها باسمي واسمِ مدينتي.

ضحكتْ وقالتْ: أنتَ أيضًا خدعوكَ. أنا (دالي) منْ باريس، أينَ نحنُ؟

قلتُ لها: أعتقدُ في مدينةٍ أوْ كأنها جزيرةٌ، رأيتُ علمَ دولةِ الإماراتِ مرسومًا على أحدِ الجدرانِ.

اقتربتْ مني أكثرَ، ففوجئتُ أنها تلبسُ ملابسَ رقصٍ شرقيٍّ وتلبسُ جاكيتًا خفيفًا. عرضتُ عليها أنْ أعطيها جاكيتي الشتويَّ، فردتْ بأنها لا تشعرُ بالبردِ كثيرًا.

كأنها اطمأنتْ أني لستُ جنّيًا، وحكتْ لي أنها شاهدتْ نفسَ ما شاهدتهُ، وكذلكَ شاهدتْ فرقةَ رقصِ نساءٍ؛ لذلكَ لبستْ زيَّ الرقصِ لتشاركهمْ.

بدا لي وكأنني سبقَ أنْ تحدثتُ معها أوْ حدثَ لقاءٌ بيننا.

طلبتْ مني سيجارةً، فتذكرتُ أنَّ علبةَ السّجائرِ معي. أعطيتها سيجارةً وأشعلتُ أنا أيضًا واحدةً لنفسي.

بدأنا نتحدث ونتخيلُ بعضَ السيناريوهاتِ التي قدْ تحدثُ.

هيَ ليسَ معها إثباتُ هويةٍ، فقطْ وجدتْ بطاقةَ الباصِ، ولحسنِ حظي لديَّ هويتيْ ومحفظتي، وكلما تحدثنا يتعمقُ إحساسي أننا نعرفُ بعضنا.

سألتها: هلْ سبقَ أنْ التقينا؟

تأملتْ في وجهي وضحكتْ: آه، الآن تذكرتكَ! مرتْ سنواتٌ طويلةٌ، أنـتَ مخـرجُ أفلامٍ وكنـتَ تبحثُ عنْ ممثلـةٍ. تعارفنا والتقينا مـرةً واحدةً، لكنـي بعدها تراجعتُ عنْ فكرةِ التمثيلِ وكنتُ قـدْ بدأتُ أتعلمُ الرقصَ الشرقـيَّ، بعدها ارتبطـتُ بعلاقةٍ عاطفيةٍ، أحببتُ رجـلًا وتفرغتُ لتلبيةِ رغباتهِ، ومنْ أجلهِ تركتُ حلمي الفنيَّ.

بعدَ سنواتٍ فشلتْ علاقتنا وانفصلنا، ثمَ خضتُ تجربةً ثانيةً وضيَّعتُ سـنواتٍ منْ عمـري، وبعدها قررتُ أنْ أعيشَ لنفـسي. في الفترةِ الأخيرةِ شـعرتُ بوحدةٍ وخذلانٍ، بجمودٍ وسكونٍ وأني لا أفعلُ شيئًا. هذهِ الليلةَ كنتُ أشربُ ودخنتُ سـيجارةَ حشـيش، بعدها شعرتُ بعتمةٍ تلفني، ثمَ تحركتُ وفتحتُ النّافذةَ، سـمعتُ الطبولَ ثمَ شاهدتُ فرقةَ رقصِ رجالٍ يرقصونَ بسـيوفٍ وخناجرَ وخلفهمْ نسـاءٌ يزغردْنَ، لبستُ بذلةَ الرقصِ لمشاركتهمْ وتبعتهمْ، ثمَ اختفى كلُّ شيءٍ إلى أنْ رأيتكَ، هذا كلُّ ما حدثَ.

تذكرتها، حدثَ اللقاءُ قبلَ أكثرَ منْ 14 سـنةٍ، غريبةٌ هذهِ المصادفاتِ، حتى ذلكَ السيناريو لم أنتجهُ إلى الآنَ.

تابعنا مشـينا في هـذا المكانِ إلى أنْ وجدنا (رجلًا عجـوزًا) بيدهِ عصا، عندما شاهدنا خاف منا وتراجعَ وهوَ يصرخُ: انصرفوا، انصرفوا.

قلتُ لهُ بصوتٍ عالٍ: نحنُ إنسٌ يا سيدي

ولسنا جنًّا.

لمْ تفهمْ(دالي)شيئًا، أشرتُ إليها أنْ تنتظرَ. اقتربتُ منْ (الرجلِ) وسألتهُ عنْ اسمِ المدينةِ، ظلَّ مترددًا لبعضِ الوقتِ، ثمَّ تحدثَ وأخبرنا أننا في (الجزيرةِ الحمراءِ)، مدينةٌ مهجورةٌ وتتبعُ إمارةَ (رأسِ الخيمةِ)، يُشاعُ عنها أنها مدينةٌ يسكنها (الجنُّ)، ولكنْ الآنَ يأتي بعضُ الناسِ بالنهارِ لزيارتها ويستمتعونَ بسواحلها النقيةِ. ثمَّ دعانا إلى بيتهِ، فقدْ كانَ يسكنُ هذهِ المدينةِ ثمَّ انتقلَ إلى مدينةِ رأسِ الخيمةِ، ومنْ حينٍ إلى آخرَ يأتي ليعيشَ ذكرياتِ زمانٍ.

أوصلنا إلى بيتهِ، صبَّ لنا الشاي وحكينا لـه قصتنا، وظلَّ منصتًا ولا ندري إنْ كانَ صدقنا.

كنتُ أحكي القصةَ بالعربيةِ والفرنسيةِ لتفهمَ (دالي) ما أقولهُ.

الرجلُ قليلُ الكلامِ ويتحدثُ بلهجةٍ محليةٍ، لكني قدرتُ أنْ أفهمهُ.

نصحنا أنْ نظلَّ في بيتهِ لأيامٍ، فربما يعودُ(الجنُّ) ويعيدوننا إلى مكاننا. كأننا نعيشُ فصلًا منْ حكايةِ ألف ليلةٍ وليلة، وكأنهُ فهمَ أني ودالي متزوجانِ.

أشارَ إلى غرفةٍ فيها فراشٌ كبيرٌ على الأرضِ، كان بصرهُ ضعيفًا، ورغمِ ذلكَ كانَ يغضُّ طرفه ولا ينظرُ إلى دالي.

فراشٌ واحدٌ لي ولها. نظرتْ إلي وكأنها تحذرني.

همستْ:أحذركَ أنْ تفكرَ في شيءٍ، سنضعُ حاجزًا في الوسطِ، وفي الصباحِ يجبُ أنْ نجدَ حلًّا.

كنتُ متعبًا أكثرَ منها، اكتفيتُ بهزِّ رأسي، رميتُ بجسدي المتهالكِ وغصتُ في نومٍ عميقٍ.

أظنُّ أنها أيضًا نامتْ في ملابسها مثلي.

صحونا على نداءِ(الرجلِ العجوزِ) الذي طرقَ بعصاهُ البابَ ودعانا للفطورِ والصلاةِ.

حدقتْ بي (دالي) وهيَ تحاولُ أنْ تصلحَ شعرها.

ثمَّ قالتْ:صباحَ الخيرِ، أشكركَ لأنكَ كنتَ عاقلًا ولمْ تفعلْ شيئًا يغضبني، أنا لمْ أعدْ أثقُ بالرجالِ.

قلتُ لها: ولا يهمكَ، نتمنى أنْ نجدَ حلًّا ونعودَ إلى ديارنا.

خرجنا ووجدنا فطورًا بسيطًا منْ الخبزِ والتمرِ والحليبِ، وكذلكَ القهوةَ المرةَ، كانَ الفطورُ لذيذًا، رأيتُ (دالي)تأكلُ بشهيةٍ جيدةٍ. استعدنا

بعـضَ توازننا، ثمَّ خرجنا مـعَ الرجلِ العجوزِ للتجـولِ، تحدثَ عنْ هذهِ الجزيرةِ وحبهِ لها.

تحدثَ عنْ حفيدتهِ (ملاك)، والتي ترعاهُ وتفهمهُ، وقالَ: سـتأتي ملاك بعد ساعةٍ، وهيَ طيبةٌ وذكيةٌ وقدْ تنجحُ في مساعدتكمْ.

لا نـزالُ نعيشُ الصدمةَ ولمْ نتفاعلْ كثيرًا مـعَ المكانِ، لا نزالُ في خوفنا منْ كلِّ شيءٍ.

وصلنا إلى قربِ الشاطئِ الجميلِ، كأنهُ لوحةٌ ساحرةٌ تنسيكَ كلَّ شيءٍ وتجذبكَ إليها.

وصلـتْ (مـلاك)، شـابةً بلباسٍ محتشـمٍ ووجهٍ أبيضٍ بشـوشٍ يشـعُّ بالبسـاطةِ والجمالِ، ظلتْ واقفةً ومندهشةً لوجودنا، أشارَ إليها جدها ألا تقلقَ، ثمَّ حكى لها مختصرًا لقصتنا.

زادتْ دهشتها وكأنها غيرُ مصدقةٍ.

تركنا الرجلَ العجوزَ وذهبَ يكملُ تجوّلَه لوحدهِ، جلسنا معَ (ملاك) وطلبتْ أنْ نعيدَ لها القصةَ ونخبرها مَن نكونُ.

لحسـنِ الحظِّ، كانت تفهمُ وتتحدثُ الفرنسيةَ بشكلٍ متوسطٍ، وحتى تطمئـنَّ، سـلّمتُها محفظتي فـرأتْ محتوياتها، كذلكَ سـلّمتها داليـا بطاقةَ المواصلاتِ، وهوَ الشيءُ الوحيدُ الذي يدلُّ على هويتها.

قالتْ ملاك: شيءٌ لا يُصدّقُ أنْ يحدثَ مثل هذا ونحنُ في عامِ 2024، أريدُ أنْ تعيدوا لي القصةَ كاملةً وبأدقِّ التفاصيلِ.

تركتُ (دالي) تبدأُ بالحديثِ، وكنتُ أتدخلُ أحيانًا عندما أرى أنَّ (ملاك) لمْ تفهمْ كلمةً أوْ عبارةً. كما أنَّ (دالي) كانتْ تذكرُ بعضَ العباراتِ بالإنجليزيةِ. ثمَّ تحدثتُ وسردتُ ما حدثَ لي معَ تناولي القاتِ وأكملتُ القصةَ إلى لحظةِ وجودنا هنا معها.

بدأتْ (ملاك) تصدّقُ ما تسمعهُ. ولكيْ تطمئنَّ أكثرَ، قمنا بعرضِ ما في هواتفنا منْ صورٍ وفيديوهاتٍ. أخذتْ هاتفَها وبحثتْ على الإنترنت عني ووجدتْ معلوماتٍ كثيرةً، مقالاتي وبعضَ رواياتي المنشورةِ وحساباتي على وسائلِ التواصلِ الاجتماعي، كما وجدتْ حسابَ (دالي) على سناب شات.

أصبحتْ (ملاك) بمثابةِ ملاكِنا المنقذِ منْ هذا المأزقِ الذي لنْ يصدقهُ عقلٌ.

بدأتْ تحلّلُ الموقفَ وترسمُ بعضَ السيناريوهات وقالتْ بجديةٍ: قصّتكمْ لنْ يصدّقها أيُّ شخصٍ، ولوْ ذهبنا إلى سفارةِ بلدكمْ وتدخلتْ الشرطةُ، ستكونُ هناكَ تحقيقاتٌ مطوّلةٌ وقدْ يتهمكمْ أحدٌ بأنكمْ جواسيسُ ودخلتمْ البلدَ بصورةٍ غيرِ شرعيةٍ، وهذا أيضًا سيحدثُ ضجيجًا وفوضى قدْ تضرّكمْ.

بقيتُ صامتةً لبرهةٍ، ثمَّ واصلتْ حديثها: قصّتكمْ تشبهُ عشراتِ الحكاياتِ في (ألفِ ليلةٍ وليلةٍ)، وأعتقدُ أنَّ منَ الأفضلِ أنْ نتبعَ الوسائلَ في هذهِ الحكاياتِ. وجودكما هنا ربما ليسَ صدفةً، وكأنَّهُ قدرٌ يعودُ ويجمعُ شملكما للمرةِ الثانيةِ، وهذا أمرٌ يخصُّكما. الأفضلَ البقاءَ هنا، والسريةُ مطلوبةٌ بعدمِ نشرِ هذهِ الحكايةِ، وننتظرُ إلى الأسبوعِ القادمِ بنفسِ اللحظةِ ونفسِ التوقيتِ، فقدْ تمرُّ الزفّةُ منْ هنا وتعيدُكما إلى ديارِكما. لوْ لمْ يحدثْ بعدُ أسبوعٍ، فقدْ يحدثُ بعدَ شهرٍ وربما بعدَ سنةٍ.

انتفضتْ (دالي) مفزوعةً وصرختْ: بعدَ سنةٍ في هذهِ الجزيرةِ المهجورةِ! أنا هنا أخافُ منَ العقاربِ والثعابينِ والذئاب، ولا ندري ما تخفيهِ الجزيرةُ منْ وحوشٍ، لا أملكُ ملابسَ ولا مالًا.

ابتسمتْ (ملاك) وأمسكتْ بيدها لتهدئَ مخاوفَها وخاطبتها: لا قلقَ بشأنِ المالِ والملابسِ، نحنُ منْ عاداتنا أن نكرمُ ضيوفنا وسوفَ أشتري لكما كلَّ ما تحتاجانهُ.

شكرتْ (ملاك)، ووجدتُ فكرتها ذكيةً وعبقريةً.

وقلتُ: ملاك، فكرتكِ عبقريةٌ ومنطقيةٌ وتحليلُكِ بديعٌ. لا يمكننا أنْ نخرجَ ونقولَ إننا كنا في فرنسا ووجدنا أنفسنا في الجزيرةِ الحمراءِ بدولةِ الإماراتِ؛ سيكونُ مصيرنا السجنَ أوْ مستشفى المجانينِ. أنا موافقٌ على

فكرتـكِ، وربـما يجبُ أنْ نكونَ مسـاءَ الأحدِ القادمِ بنفـسِ الحالةِ التي كنا عليها ليلةَ البارحةِ.

قاطعتنـي مـلاك قائلةً: يعنـي تريدُ أنْ أجلـبَ لكَ قاتًا وأجلـبَ لداليا بعـضَ الـشرابِ والحشـيشِ! حقيقـةً، في حياتي كلِّها لمْ أمسـكْ كأسًـا أوْ سيجارةً، وكذلكَ لا أعرفُ شيئًا عنِ القاتِ.

نظرتْ إليها داليا مترجّيةً:أرجـوكِ، ملاك، هذهِ فكرتكِ وأنتِ ملاكُنا المنقـذُ، وأكيدٌ سـتجدينَ طريقـةً لشراءِ هذهِ الأشـياءِ، وعندمـا نصلُ إلى فرنسا نرسلُ لكِ كلَّ النفقاتِ.

صمتتْ ملاك للحظاتٍ، ثمَّ ابتسمتْ: لا أريدُ أيَّ تعويضٍ، وأنا أزورُ فرنسـا كلَّ صيفٍ، وهناكَ سـنلتقي... حسنًا، سـأرى كيفَ أتدبّرُ الأمرَ. سـأترككُمْ الآن، سـآخذُ جدي وأعيـدهُ إلى مدينةِ رأسِ الخيمـةِ، ثمَّ أعود إليكـمَا بما تحتاجونهُ منْ أكلٍ وشربٍ وملابسَ وأشـياءِ أخرى. على فكرةٍ، هـذهِ الجزيـرةُ جميلـةٌ وليسَ فيهـا وحوشٌ ولا أشـباح؛ لا تحرما أنفسـكما الاستمتاعَ بجمالها.

قادتنـا (مـلاك) إلى بيـتِ جدها، وهوَ مـكانٌ مرتفعٌ قليلاً، تـمَّ ترميمهُ بشـكلٍ بسيطٍ والطريقُ إلى الساحلِ سهلٌ. كنتُ أشيرُ إلى (دالي) أنْ تحفظَ الطريقَ.

غادرتْ (ملاك) معَ جدها بالقاربِ الذي جاءتْ بهِ، وبقينا أنا وداليا، قدَرنا أنْ نكونَ معًا هنا بعيدًا عنْ العالمِ.

سألتني دالي: هلْ فكرتَ بي بعدَ اللقاءِ الأولِ الذي حدثَ بيننا في باريس؟

قلتُ مبتسمًا: هناكَ وجوهٌ لا يمكنُ نسيانها، وأشخاصٌ يلتصقونَ في أعماقِ ذاكرتنا. حقيقةً، نعمْ، كنتُ معجبًا بكِ، وبعدَ انقطاعِ تواصلنا بقيتْ صورتكِ تلوحُ لي أحيانًا كلما مررتُ بتلكَ الحانةِ الباريسيةِ التي جلسنا فيها، لكنها الحياةُ لقاءٌ وفراق. وأنتِ؟

حدقتْ بوجهي وهتفتْ: نعمْ، كنتُ أتمنى في ذلكَ اللقاءِ لوْ كنتَ شجاعًا وعانقتني، أنتَ طيبٌ وعفويٌّ وخجولٌ جدًّا، وفي لحظاتٍ ما معَ أيِّ امرأةٍ عليكَ أنْ تكونَ شجاعًا، ولوْ كنتَ يومها تقدمتَ نحوي خطوةً واحدةً، لكنتُ ارتميتُ في أحضانِكَ دونَ تردّدٍ ولا حسابٍ لأيِّ منطقٍ.

اندهشتُ لما أسمعهُ وكأنّي مطالبٌ الآنَ بتقديمِ اعتذارٍ لخطإٍ حدثَ منذُ سنواتٍ طويلةٍ. تلعثمتُ وأنا أقولُ: آهٍ، ربما كنتُ ساذجًا وقليلَ خبرةٍ في هذا المجالِ، وربما لا زلتُ جبانًا. وقدْ حدثتْ لي حكاياتٌ تبدأُ بتعارفٍ مدهشٍ وبعدها يحدثُ جمودٌ.

أمضينا عدةَ ساعاتٍ ونحنُ نتحدثُ، ذابتْ بعضُ الحدودِ بيننا. هيَ

لمْ تعدْ الشابةَ الصغيرةَ، فتاة العشرينِ المتدفقة بالرغبةِ، وأنا لستُ الرجلَ الشابَّ الثلاثينيَّ التواقَ لخوضِ المغامرات.

تذكرتُ عودةَ (ملاك)، ودعوتُ (دالي) أنْ نذهبَ إلى الشاطئِ وننتظرها هناكَ. خرجنا نمشي دونَ خوفٍ، وكأنَّ هذهِ الجزيرةَ أصبحتْ وطنَنا. الغريبُ في هذا المكانِ أنَّكَ تألفهُ وتدهشكَ فيهِ كلُّ زاويةٍ رغمَ البساطةِ. الهواءُ هنا نقيٌّ؛ فهوَ نسائمُ تغني وتنشدُ بلحنٍ خافتٍ بالكثيرِ منْ الروحانيةِ، وقدْ نستكشفُ الكثيرَ منَ الأشياءِ.

وصلنا إلى الشاطئِ وقتَ العصريةِ، وكانتْ الشمسُ لطيفةً، والموجُ يرسلُ أهازيجهُ. تشجعنا بالدخولِ قليلًا لنبلَ أرجلنا، وبَدَتْ (دالي) تمازحني وهيَ تلهو معَ الموجِ. أحاولُ كسرَ الجمودِ بداخلي وأنظرُ إلى (دالي) كصديقةٍ وليستْ مجردَ شريكةٍ في كارثةٍ لمْ نكنْ مستعدينَ لها.

أخذتني منْ يدي وسحبتني لملاعبةِ هذهِ الموجاتِ الرقيقة، يذوبُ التجمُّدُ في تصرفاتي بالتدريجِ وكأنها بدايةُ حكايةٍ جديدةٍ، امرأةٌ جديدةٌ حقيقيةٌ وليستْ متخيلةً.

وصلتْ (ملاكُ)بقاربها المحملِ بأشياءَ كثيرةٍ تكفينا لعدةِ أيامٍ. سلّمتنا هاتفًا بهِ رقم إماراتيٌّ لنتصلَ بها للضرورةِ، ومنْ أغربِ ما حملتهُ لنا نسخةٌ منْ كتابِ «ألفِ ليلةٍ وليلةٍ»باللغةِ العربيةِ.

قالـتْ: صدفةٌ غريبةٌ؛ فقدْ كنتُ أعيدُ قراءةَ هذا الكتابِ، وانتهيتُ منْ صفحتهِ الأخيرةِ قبلَ اللقاءِ الأول بكما.

سـاعدتنا في حمـلِ كلِّ هـذهِ الأشـياءِ إلى منـزلِ جدهـا، وحذرتنـا منْ التجولِ ليلًا، فأحيانًا تمرّ دوريةُ شرطةٍ، وحتى لا نقع في متاعبَ.

عدنـا معها لتوديعها عـلى أنْ تعودَ صبـاحَ الغدِ. بقينا ثلاثتُنا نسـتمتعُ بمنظرِ الغروبِ الساحرِ، ثمَّ أخذتْ (ملاكُ) قاربها وغادرتْ.

عدنا إلى البيتِ نرتبُ الأشـياءَ ونسـتعدُّ لتناولِ العشاءِ، وجدنا بعضَ علـبِ الجعةِ ولكنَّ نسـبةَ الكحـولِ خفيفةٌ جـدًّا، وكذلكَ علبُ سـجائرَ وفرشـاةِ ومعجونِ أسنانٍ ومسـتلزماتِ الاسـتحمامِ والنظافةِ الشخصيةِ، ومناشفَ وبيجاماتِ نومٍ.

فرحتْ (دالي) وأخذتْ مسـتلزماتِ الاستحمامِ وبيجاما ورديةً خفيفةً بمقاسها، وأشارتْ لي أنها ستأخذُ حمامها. بابُ المرافقِ بسيطٌ ودونَ بابٍ، مجردُ ستارةٍ قماشيةٍ بلونٍ أسودَ تغطيهُ، كأنَّها تقولُ لي: لا تدخل أوْ احرسني فلا يدخلُ أحدٌ. هززتُ رأسي لتطمئنَّ.

أشعلتُ فانوسَ الكيروسينِ وبعضَ الشموعِ وأمسكتُ بكتابِ (ألفِ ليلةٍ وليلةٍ)، طبعةٌ قديمةٌ من المكتبةِ الشعبيةِ في مصرَ. تذكرتُ هذهِ الطبعةَ وملمسَـها وحكاياتِهـا، وكنـتُ قد قرأتُهـا لأولِ مـرةٍ وأنا بسـنِّ المراهقةِ،

وتذكـرتُ فيلمَ «ألـفِ ليلةٍ وليلةٍ»وكلَّ مشـاهدهِ للمخـرجِ الإيطاليِ (بير باولـو بازوليني). تمنيتُ في هذهِ اللحظـةِ أنْ تكونَ حكايتنا هنا أقلَّ إثارةً، وأحداثُها عاديةٌ، وألَّا نفاجأ بأحداثٍ عاصفةٍ وقاسيةٍ لا نتحملها.

خرجتْ (دالي) وهيَ تلفُّ رأسَها بمنشفةٍ ناعمةٍ، وتلبسُ تلكَ البيجاما الورديةَ، وأشـارتْ لي بأنْ أذهبَ لأخذِ حمامي. فعـلًا كنتُ بحاجةٍ لتغييرِ ملابسي ولأنْ ينسـابَ الماءُ فوقَ جسـدي. أمسـكتْ بيدي ودفعتني برفقٍ إلى مكانِ الاستحمامِ.

أعـدَّتْ (دالي) المكانَ والمائدةَ وبقيتْ تنتظرني. خرجتُ نظيفًا منتعشًـا وفوجئتُ بأناقةِ المكانِ بفضلِ بعضِ لمساتِ هذه المرأة.

همسـتُ لنفـسي: حقًّا، بيـتٌ بلا امرأةٍ كجنَّـةٍ بلا ملاكٍ. دائـمًا ما تبعثُ المرأةُ في الأماكنِ والكونِ الحلمَ والدهشةَ.

(قضينـا سـهرةً هادئـةً لمْ نتطـرقْ فيهـا إلى أزمتنا هنـا ولا إلى ما حدثَ لنا. واصلتْ (دالي تسـألني عنْ نفسي وأعـمالي، وأنا أحكي لها ملخصاتٍ لبعـضِ روايـاتي. أغلبُ روايـاتي فيها تدفقـاتُ الرغبةِ وعلاقـاتٌ غراميةٌ وبعضُ المشـاهدِ المثيرةِ. رأيتُها تبتسمُ وتكسرُ الحدودَ، ووصلنا إلى مرحلةٍ من الملامساتِ العفويةِ العاديةِ.

تحدقُ بي وأحدقُ بصدرِها، ثمَّ أكسرُ نظراتي.

انتهتْ سهرتنا وقلتُ لها: يمكنكِ النومُ لوحدكِ على الفراشِ، وأنا سأنامُ هنا بغرفةِ الجلوسِ.

رفضتْ وصرختْ بي: مستحيلٌ أنامُ وحدي، قدرُنا أنْ نكونَ هنا، وأنتَ يجب أنْ تحميني.

أمسكتني لنستعدَّ للنومِ، وضعتُ فاصلاً بيننا كما فعلتْ الليلةَ الماضيةَ، لكنها رمتْ بالفاصلِ واكتفتْ بأخذِ شرشفٍ خفيفٍ لتغطِّيَ بهِ جسدَها.

أنا أيضًا وضعتُ شرشفًا يغطي نصفيَ السفليَّ. مالتْ نحوي وأمسكتْ بيدي وطلبتْ أنْ أحكيَ لها قصةً قصيرةً لطيفةً كحكايةٍ قبلَ النومِ.

حكيتُ لها قصةَ «كارمن»منْ مجموعتيْ الأولى. عندما أنهيتُ القصةَ وجدتها مستغرقةً في النومِ، بقيتُ لبعضِ الوقتِ أتأملُ هذا السقفَ الخشبيَّ لهذهِ الغرفةِ، ثمَّ غمرني النعاسُ.

في صباحِ اليومِ التالي، صحونا بحدودِ العاشرةِ صباحًا وتناولنا فطورنا.

لبسنا ملابسَ جديدةً تتناسبُ مع الطقسِ، وخرجنا للتجولِ في أماكنَ محفوفةٍ بالظلِّ. كانت هناك بعضُ الأشجارِ الخضراء والنخيلِ وشجيراتٌ متعددةُ الألوانِ.

طلبتْ مني أنْ أمسكَ يدَها حتى لا تقعَ، فأمسكتُ يدَها لتشعرَ بالأمانِ. وصلنا عند الظهيرةِ إلى قربِ الشاطئِ وبقينا ننتظرُ وصولَ (ملاك). جلسنا في مكانٍ بهِ ظلٌّ، ولمْ نتمكنْ من الاقترابِ منْ الشاطئِ لشدةِ حرارةِ الشمسِ. انتظرنا ما يقربُ منْ ثلاثِ ساعاتٍ ولمْ تأتِ (ملاك)، فقررنا العودةَ إلى البيتِ لنأكلَ شيئًا ونتصلَ بها. عدنا إلى البيتِ، ولمْ تتصلْ ملاك، وحاولنا أنْ نتصلَ بها لكنها لمْ ترد.

كرّرنا المحاولةَ مراتٍ عديدةً دونَ فائدةٍ.

مضتْ ساعاتٌ وعدنا إلى الشاطئِ وقتَ العصريةِ معَ هدوءِ أشعةِ الشمسِ، بقينا نسألُ أنفسنا عنْ سببِ تأخرِ ملاكٍ، حانَ وقتُ الغروبِ والقلقُ ينهشنا، ولمْ نستمتعْ بالبحرِ ولا أمواجهِ. عدنا بعدَ الغروبِ إلى البيتِ والصمتُ يلفُّنا، وقلقُنا وشكوكُنا تزدادُ وتفسدُ علينا كلَّ شيءٍ.

بقينا في غرفةِ الجلوسِ، تلفُّنا القليلُ منَ العتمةِ، ولمْ ينهضْ أحدُنا ليشعلَ شمعةً، واكتفينا بالضوءِ المتسربِ منَ النوافذِ المتعددةِ. نهضتُ وجلبتُ عدةَ علبٍ منَ الجعةِ وصحنًا لإطفاءِ السجائرِ، ناولتُها علبةً وسيجارةً، بدأنا نشربُ وندخنُ في صمتٍ.

زادتْ لتقتربَ وتلتصقَ بي، وضعتْ رأسَها على كتفي.

قالت: أنا خائفةٌ، لماذا لمْ تأتِ ملاكُ أوْ تتصلْ بنا؟

قلتُ لها: عذرُ الغائبِ معهُ، أنا متأكدٌ أنها لنْ تخذلنا.

بدأتْ تُعدّدُ الاحتمالاتِ: ماذا لوْ...، ماذا لوْ...

قلتُ لها: «لو» في هذا الموقفِ منْ عملِ الشيطانِ، إنها ليلتُنا الثالثةُ هنا وستمرُّ بسلامٍ.

هنا كأننا نسمعُ ضجيجًا وأصواتًا غريبةً بالخارجِ، نسمعُها تقتربُ منا. هذهِ الأصواتُ المفجعةُ خلقتْ الخوفَ والرعبَ في نفوسِنا، تمسكتْ بي وبقينا نهمسُ لبعضِنا بصوتٍ خافتٍ: أكانتْ هذهِ أصواتُ الجنِّ أمْ قطيعٌ منَ الذئابِ والضباعِ أمِ الشرطةِ أمْ أشياءُ أخرى شريرةٌ؟

طوّقتها بذراعي، وانغرستْ في صدري.

يمرُّ الوقتُ ببطءٍ شديدٍ ويزدادُ الرعبُ وكأنَّ شيئًا ما يركضُ فوقَ السطحِ، والريحُ تركلُ النوافذَ والبابَ.

فجأةً توقّفَ كلُّ شيءٍ، وعمَّ الصمتُ المطبقُ، شعرنا ببعضِ الأمانِ.

بعدَ مضيِّ ربعِ أوْ نصفِ ساعةٍ منْ ذهابِ وتوقّفِ الأصواتِ، رنَّ الهاتفُ. سارعنا إليه، وصلتنا رسالةٌ منْ (ملاكٍ) تعتذرُ فيها لعدمِ المجيءِ وتبشرُنا بأنها وفّرتْ المطلوبَ.

كانتْ رسالةُ ملاكٍ القصيرةِ بردًا وسلامًا أخرجَتنا منْ متاهاتِ «ماذا لو...». نهضتُ وأشعلتُ الفانوسَ وبعضَ الشموعِ.

نهضتْ (دالي) لتقـرِّبَ بعضَ الطعامِ وتُخلصَنا منْ عقدةٍ مقلقةٍ حرمتْنا متعةَ اليومِ والجزءَ الأولَ منْ هذهِ الليلةِ.

أكلنا بعضَ الطعامِ وقمتُ بإعدادِ إبريقٍ منَ الشـايِ، أحضرتْ (دالي) المشطَ وقنينةَ زيتٍ عطريٍّ للشعرِ ودهانَ المسكِ اللطيفِ للجسمِ، وظلَّتْ تمشّطُ شعرها إلى الأمامِ ثمَ إلى الجهةِ اليمنى وطلبتْ أنْ أساعدَها. أمسكتُ المشطَ ومشّطتُ شعرَها برفقٍ.

نهضتْ لتبديلِ ملابسِـها والاسـتعدادِ للنومِ، وجهّزْنا أنفسَـنا ودخلنا الغرفةَ إلى فراشِـنا المشـتركِ. أخذتْ تدهنُ ظهرَها وأشـارتْ لي أنْ أدلِّكَهُ برفـقٍ. كانـتْ يـدي ترتعشُ قليـلًا، تتدفّقُ الرغبـاتُ كموجِ البحـرِ يهزّنا بلطـفٍ. تأتيني حالةُ تبلّدٍ في مثـلِ هذهِ المواقفِ، فلا أنا «دونجوان»الخطيرِ ولا أنا الشخصُ الذي يقطعُ ذيلَ الذئبِ.

تتبعُ (دالي) أسـاليبَ سلسةً مشجعةً، وقدْ قالتْ لي في المرّةِ السابقةِ إنها كانتْ مسـتعدةً للغرقِ في اللذةِ باللقاءِ الأولِ في الحانةِ الباريسـيةِ، لكني لمْ أوقدْ فتيلَ تلكَ اللذةِ، وها هيَ الآنَ تمدُّني بكلِّ أسبابِ الشجاعةِ، وربما لوْ خذلتُها سـتكونُ نهايةَ النهايةِ بينَنا. أطفأتْ دالي الشمعةَ، ورائحةُ جسدِها وصدرِها وكلُّ شيءٍ فيها يشيرُ «هيتَ لكَ، هيتَ لكَ...».

همستْ: لتكنْ ليلتُنا عناقاتٍ لطيفةً دونَ فعلِ شيءٍ.

استجبتُ لها وحطّمتُ بعضَ البلادةِ بداخلي،أمضينا ليلةً لطيفةً، جعلتْها هيَ منْ يرسمُ الحدودَ المسموحَ بها والمحذورةَ في العناقاتِ.

صحونا قربَ الظهيرةِ على صوتِ (ملاك)ودقاتِها الخفيفةِ على البابِ.

وجدتُ نفسي دونَ فانيلا، وكذلكَ (دالي) بصدرٍ مكشوفٍ، فأشرتُ إليها لتستقبلَ ملاك. لبستْ قميصَ البيجاما وسارعتْ تستقبلُ وترحبُ بملاك.

لبستُ سريعًا، وكانَتْ (ملاك) قد فهمتْ كيفَ سارتْ ليلتُنا وتأسفتْ لغيابِها بالأمسِ. حملتْ لنا أشياءَ كثيرةً، والأهمُ أنها جلبتْ المطلوبَ لليلةِ العودةِ.

أعطتني كيسًا صغيرًا فيهِ قاتٌ يابسٌ وأعطتْ (دالي) قطعةً صغيرةً منَ الحشيشِ.

ظلَّتْ (ملاك) مبتسمةً وهيَ تحدثُنا عنْ مشوارِها بالأمسِ.

وقالتْ: لأولِ مرةٍ في حياتي أمسكُ حشيشةً أوْ قاتًا، فلا تستخدموها إلا بالليلةِ السابعةِ لعلّكمْ تعودونَ إلى بلدِكم.

حملتْ لنا دلةَ قهوةٍ ساخنةً ودلةً ثانيةً منَ الشايِ، وطلبتْ منا أنْ نجهّزَ أنفسَنا لعملِ جولةٍ في الجزيرةِ، ثم تركتنا لتجلس تحتَ ظلِّ شجرةٍ كبيرة.

سارعنا لتجهيزِ أنفسِنا وأخذنا بعضَ الأشياءِ لهذهِ الجولةِ. كانَ هذا نهارًا لطيفًا وغائمًا قليلًا ولا خوفَ منْ ضرباتِ الشمسِ.

تجولنا وزرنا بعضَ البيوتِ المهجورةِ، بعضها بلا أبوابٍ، وزرنا قلعتَها المشهورةَ التي ذكّرتني بقلعةِ مدينتي (بيتِ الفقيه) بالحديدةِ.

حدثتنا (ملاك) عنْ تاريخِ الجزيرةِ، وأنها كانتْ منَ المدنِ المشهورةِ بصيدِ وتجارةِ اللؤلؤِ، لكنْ معَ ظهورِ النفطِ والتمدنِ هجَرَها سكانُها، وتلكَ الحكاياتُ عنْ الجنِّ خياليةٌ. يوجدُ الآنَ اهتمامٌ بالعنايةِ والمحافظةِ على ما بقيَ منَ المعالمِ التاريخيةِ التي تعودُ إلى أربعمائة سنةٍ، وكذلكَ المحافظةُ على الثروةِ البيئيةِ. لمْ تعدْ الجزيرةُ مهجورةً بالكاملِ، لكنَّ بيتَ الجدِّ يقعُ في ركنٍ قديمٍ.

فضَّلتْ (ملاك) أنْ تكونَ جولتنا في مناطقَ خاليةٍ منَ الزوارِ، استمتعنا بساعاتٍ مفرحةٍ ولمْ نخبرْ ملاك عنِ الأصواتِ الغريبةِ. عدنا إلى البيتِ، وطلبتْ منا ملاك أنْ تكونَ حركتنا محدودةً ولا نتحدثَ إلى أحدٍ ولا نلفتَ النظرَ، ووعدتنا بالعودةِ بعدَ يومينِ لأنَّ لديها أعمالًا مهمةً.

ودعتْنا (ملاك) وكأنها تباركُ التقاربَ بيني وبينَ دالي. أخذنا راحةً إلى قبيلَ الغروبِ، وبعدها ذهبنا إلى الشاطئِ، وبقينا مدةَ ساعتينِ ونحنُ نلعبُ ونلهو مع البحرِ.

انغمسنا معَ أمواجِهِ لتبلّلنا كما تشاءُ.

هـذهِ ليلتُنا الرابعةُ، أخذنا نستعدُّ لها بما حملتْهُ (مـلاك)، لكنْ علينا ألا نستخدمَ بعضَ الأشياءِ المخصصةِ لليلةِ السابعةِ. يكبُرُ اليقينُ في نفوسِنا بأنَّ عودتَنا ستكونُ قريبةً.

يشعُّ الفانوسُ بضوءٍ لطيفٍ وتدعمهُ بعضُ الشموعِ العطرةِ لليلةٍ آمنةٍ دونَ خوفٍ.

أخبرتني (دالي) أننا سنفعلُ كما فعلنا البارحةَ ولا نزيدُ بسببِ موانعَ طبيعيةٍ، فهمتُ أنها تقصدُ الشيءَ الشهريَّ.

سألتُها: المهمُ أنكِ فرحةٌ؟

غمزتْ بعينِها اليمنى وقالت: سأفرحُ أكثرَ عندما نعودُ، سيكونُ كلُّ شيءٍ وأكثر، وبعدَ ذلكَ نأتي سياحةً لزيارةِ هذهِ الجزيرةِ ولنْ يكونَ هناكَ أيُّ خوفٍ.

قضينا الليلةَ الرابعةَ بسلامٍ وعناقٍ، ولمْ نسمعْ أيَّ ضجيجٍ.

في اليومِ الرابعِ، تجولنا قليلاً وعدنا، وقرأتُ لدالي بعضَ القصصِ منْ كتابِ «ألفِ ليلةٍ وليلةٍ»، وختمنا يومَنا معَ البحرِ والغروبِ والموجِ.

ها هيَ الليلةُ الخامسةُ، نضحكُ ونمرحُ ونأكلُ ونتعانقُ بلطفٍ. قبيلَ منتصفِ الليلِ، بدأنا نسمعُ أصواتًا تشبهُ صوتَ القطاراتِ والمترو في

باريس، تمازجتْ هذهِ الأصواتُ معَ صراخِ بائعينَ متجولينَ وكأنَّنا نسمعُ ضجيجَ سوقِ المدينةِ. أطفأنا الشموعَ، وبقينا في حالةِ عناقٍ، كلامُنا همسٌ خفيفٌ. لمْ يكنْ خوفُنا كبيرًا، وكأنَّ هذهِ التجربةَ أكسبَتنا الكثيرَ منَ الشجاعةِ.

بدأتْ (دالي) تغني بصوتٍ خفيفٍ، ثمَّ تشجعتْ لتغنيَ بصوتٍ عالٍ.

لمْ نرَ أحدًا يقتربُ، فقطْ أصواتٌ تعلو ثمَّ تختفي، وبعدَ ساعةٍ ومعَ علوِّ صوتِ أغاني دالي، اختفتْ الأصواتُ.

فرحتْ، وأمسكتْ بيدي تحثُّني أنْ نستعدَّ ونذهبَ إلى فراشنا. قضينا ليلةً أكثرَ شجاعةً وعناقاتٍ أكثرَ حرارةً.

مضى اليومُ الخامسُ والليلةُ السادسةُ بسلامٍ.

زادتْ علاقتُنا بالمكانِ وعرفنا تفاصيلَ أكثرَ. لعبنا معَ البحرِ والموجِ، معَ الريحِ والترابِ، وعانقنا كلَّ شجرةٍ نقابلُها أوْ نمرُّ بجانبها.

نمنا إلى الظهيرةِ، صحونا ونحنُ فقطْ بملابسنا الداخليةِ.

هذا يومنا السادسَ ونتمنى أنْ يكونَ اليومِ الأخيرَ في هذهِ الرحلةِ التي تزدادُ دهشةً وإثارةً.

قبلتني ونهضتْ لتجهزَ نفسها، وأنا كذلكَ جهزتُ نفسي. لبسنا الملابسَ التي جئنا بها، جاءتْ (ملاك) ووجدتنا قدْ تناولنا فطورنا.

حملتْ لنا أكياسًا منْ الأكلِ اليمنيِ، تجولنا كمودعينَ للشجرِ والحجرِ والبحرِ ولهذا الملاكِ المنقذِ، وعندَ توديعها لنا، عانقتنا بمحبةٍ، عناقًا ثلاثيًا إنسانيًا، تبدو ملاك متأكدةً جدًا منْ عودتنا.

تبادلنا أرقامَ الهواتفِ، مثلَ هذهِ الفتاةِ لا يمكنُ أنْ ننسى معروفها وكرمها، أعطتنا مبلغَ خمسمائة يورو نضعهُ في جيبنا كاحتياطٍ وكأنها تعرفُ ما لا نعرفهُ.

تزحفُ بواكيرَ الغروبِ لنودعَ البحرَ، رقصتْ (دالي) منْ أجلهِ ولمْ تبالِ بالموجِ يبللُ ملابسها.

عدنا إلى البيتِ، تناولنا هذا العشاءَ اللذيذَ، بدأتْ (دالي) تشربُ وتلفَ سجائرها، بدأتْ بتناولِ القاتِ.

أضعُ بعضَ أوراقهِ اليابسةِ، أبللها في فمي برفقٍ، أعجبني مذاقهُ منْ الورقةِ الأولى، ترمقني دالي وتضحكُ، أشعلتْ سيجارتها الأولى، فتحنا نوافذَ البيتِ لنسمعَ صوتَ الطبولِ.

ظلّ الصمتِ سيدَ الموقفِ.

التصقتْ بي دالي وهمستْ لي: الجوُ صحوٌ وجافٌ، لا مطرَ هذهِ الليلةَ.

قلتُ بعفويةٍ وسذاجةٍ: ليلةٌ ساكنةٌ وهادئةٌ.

ضربتني على كتفي وقالتْ: فهمكَ بطيءٌ... لساك ما فهمتْ؟

أدركتُ ما تقصدهُ وأنها تجاوزتْ الفترةَ الشهريةَ، ابتسمتُ، نهضتْ لتغنيَ وترقصَ وتقدمَ لي عرضًا مغريًا كأني شهريارْ.

قالتْ: تجعلني بطلةَ فيلمكَ الطويلِ وتكتبُ سيناريو لهذهِ الرحلةِ، أعتقدُ أن أيَّ منتجٍ ذكيٍ سوفَ يتحمسُ لها.

تمضي اللحظاتُ تلوَ اللحظاتِ، تفتحُ لي بوابةَ (الساعةِ السليمانيةِ)، تتقافزُ أحداثُ حكايتنا كأني الآنَ في غرفةِ المونتاجِ معَ فريقِ العملِ، وهمْ يسألون عنْ النهايةِ، وأظلُّ صامتًا وكأننا لمْ نصورْ النهايةَ ولا ندري ما ستكونُ.

بدأت (دالي) أيضًا تدخلُ إلى النفقِ الذي يحدثهُ الحشيشُ بمستخدمهِ غيرِ المدمنٍ، ظلتْ صامتةً، وأنا كذلكَ أستعيدُ لقطاتٍ تتلاطمُ منْ عوالمِ ذكرياتي.

كأني الآنَ أدخلُ بذروةِ (الساعةِ السليمانيةِ)، يطبقُ الصمتُ على كلِ شيءٍ، وربما يلفُّ الكونَ بأرديتهِ المعتمة.

فجأةً، تحدثَ الآنِ المعجزةَ، أشعلُ سيجارةً، أشربَ كأسَ شايٍ مركزٍ.

نسمعُ الآنَ صوتَ الطبولِ والتصفيقِ والزغاريدِ، صوتَ لعلعةِ الرصاصِ، وجدتُ (دالي) تلتصقُ بي مبتسمةً، وتهزُّ رأسها بأنها تسمعُ ما أسمعهُ.

خرجنا، نسيرُ خطواتٍ هادئةً، نقتربُ منْ الأصواتِ، تكبرُ دهشتنا، نقتربُ أكثرَ وأكثرَ.

ها نحنُ الآنَ نراهم، (العريس) على حصانهِ بسيفهِ الفضيِّ، (فرقةٌ الزرانيقُ)، هذهِ رقصةٌ الحقفةُ الجماعيةُ، ثمَ تبدأُ رقصةَ الحميريِّ.

يسيرونَ ببطءِ شديدٍ، يستمرونَ بالرقصِ بكلِ حماسةٍ، وتأتي رقصةُ المسايفةِ. الراقصُ يتصببُ عرقًا، الطبالُ يتقدمُ ليثيرهُ، صاحبُ القصبةِ، أيِ الناي التهاميِّ، يفتحُ أبوابَ الصراعِ، يزدادُ المشهدُ إثارةً وتتعالى الصرخاتُ.

يسيرونَ الآن ونحنُ نسيرُ معهم، الظلمةُ تلفُّنا، كأننا نغوصُ ونخترقُ بوابةَ العالمِ الميتافيزيقيِّ المجهولِ، لا نعلمُ إلى أيِّ جغرافيا سينقلنا.

تمسكُ (دالي) بذراعيْ وتتشبثُ بها بقوةٍ.

نشعرُ وكأننا في غيبوبةٍ في اللامكانِ واللازمان.

لا أعرفُ: أكانتْ لحظاتِ أمِ دقائقِ أمِ شيْئًا آخر..

يبدو أني نائمٌ، وأشعرُ برأسِ (دالي) فوقَ كتفي، أشعرُ برائحتها العطرة تتغلغلُ بداخلي.

وكأننا على متنِ شيءٍ يتحركُ.

لمْ أقدرْ أنْ أجمعَ نفسي، وأفتحَ بصري، هلْ أنا نائمٌ أمْ ميتٌ؟

يدٌ تلمسني برفقٍ وصوتٌ يقولُ: سيدٌ، سيدةُ تذاكركمْ؟

أفقتُ والآنَ أشعرُ وأرى ثلاثةَ رجالٍ حولنا.

صحتْ (دالي) في هذهِ اللحظةِ أيضًا: نحنُ بحاجةٍ للحظاتٍ لنستوعبَ ما يحدثُ!

أدركنا أننا في باصٍ، وأنَ هؤلاءِ المفتشينَ يطلبونَ منا تذاكرَ الصعودِ، همْ يتحدثونَ الفرنسيةَ.

إذنْ نحنُ في فرنسا، لكننا لا ندري في أيِّ مدينةٍ. طلبَ أحدهمْ تذاكرَ الصعودِ أوْ أنْ ندفعَ مئةَ يورو كمخالفةٍ.

سألتهُ بجدية: نحنُ في أيِّ مدينةٍ؟

ردَّ مستغربًا:بوردو يا سيدٌ، بلدِ النبيذِ.

فرحتُ (دالي)، قفزتْ تعانقني، وهيَ تصرخُ بفرحٍ: نعمْ، نعمْ، عدنا إلى الديارِ، نجحنا في العودةِ.

تهللَ وجهي بالفرحِ وقلتُ للمفتشِ: ندفعُ، ندفعُ.

وأخرجتْ منْ جيبي مئةَ يورو وسلمتها للمفتش.

عادتْ (دالي) لتعانقني، ثمَ سألتْ (المفتشَ): سيدٌ، هلْ ممكنٌ تدلنا على أقربِ فندقٍ قريبٍ؟

توقفتْ الحافلةُ.

هزَّ الرجلُ رأسهُ وقالَ: هنا عند هذه المحطة، أمامها فندقٌ جيدٌ.

أمسكتني (دالي) منْ يدي لمغادرةِ الحافلةِ، وهيَ تشكرُ المفتشَ والسائقَ والركابَ.

مـعَ نزولنـا مـنْ الحافلـةِ وملامسـةِ أقدامنـا للرصيفِ، قفـزتْ (دالي) لتعانقني للمرةِ الثالثة، طوقتها بذراعيّ.

همستْ لي: الجوُ منعشٌ وجافٌ، لا مطرَ الليلةَ.

طوقتها بقوةٍ، رفعتْ فمها، بحثت عنْ شفتاي لنيلِ قبلاتٍ لطيفةٍ.

همسـتْ وهيَ تشـيرُ إلى الفندقِ: لنذهبْ، المهمَ أننا في فرنسا، عدنا إلى الديـارِ، أنـتَ عليكَ أنْ تحرمَ القاتَ على نفسـك، وأنا سـأحرمُ على نفسي الحشيشَ.

أم الدويس

في حديقة أحد المجمعات السياحية بمدينة (رأس الخيمة)، كان اللقاء الأخير لمؤتمرٍ خاصٍ عن الخرافات. ثلاثةُ أيامٍ بلياليها وأنا أستمعُ إلى حكاياتٍ وخرافاتٍ شعبيةٍ قديمةٍ إماراتيةٍ وخليجيةٍ في هذا المؤتمر عن التراث والفولكلور الشعبي الإماراتي. وجدتُ شبابًا وشاباتٍ يميلونَ إلى هذا النوع من السرد، بعضهم بدأ يبدعُ محتوىً خاصًا به وينشرهُ على وسائل التواصل الاجتماعي، ومنهم من يعملُ على تطوير بعض أفكاره لخلق أعمالٍ سينمائيةٍ.

التقيتُ في هذه الليلةِ بامرأةٍ أنيقةٍ، وكنا نتبادلُ النظراتِ من أولِ لقاءٍ، لكني لم أتشجع كثيرًا للتعرفِ عليها. بدا لي من ملامحِ وجهها أنها ليست إماراتيةً، ربما تكون مقيمةً أو جاءت كضيفةٍ.

انتهى المؤتمرُ بكل حكاياته وجلساته. جمعتُ أشيائي للمغادرةِ إلى غرفتي، بقيت لي هذه الليلةُ وغدًا، وسأعودُ إلى باريس مساء الغد بعد منتصفِ الليلِ.

فوجئتُ بها، تبتسمُ وتمدُّ يدها اليمنى لتصافحني، وتقولُ: بيننا الكثيرُ من النظراتِ والابتساماتِ، وانتظرتك أن تبادرَ لتحيتي.

مددتُ يدي لمصافحتها. تلعثمتُ في ردّي، وقلتُ: ألف مرحبًا، أعتذرُ لكِ، أنا خجولٌ نوعًا ما.

قبضت على يدي بلطفٍ، شعرتُ بنعومتها، وأغرقتني بروائحِ عطرها.

قالت: أنا عيشة، كنتُ مقيمةً في باريس والآنَ أعملُ هنا في مجالِ المسرحِ. حضرتُ فقط الجلساتِ المسائيةِ لهذا المؤتمر، لم أقدر على حضورِ كلِّ الأنشطةِ.

شعرتُ أنها تقبضُ بكفِّها على يدي لتطولَ المصافحةَ، ثمَّ أرختها بلطفٍ.

تقدمت خطوةً نحوي، وقالت: أعرفك وقرأتُ لك، قد أزورُ باريس قريبًا، تركتها بعد طلاقي وجئتُ هنا للبحث عن عالمٍ جديدٍ وحياةٍ جديدةٍ وكذلك بعضِ المالِ. بلدانُ الخليجِ فيها فرصٌ كثيرةٌ، وهي أوروبا الجديدة.

قلتُ وأنا أحاولُ التخلصَ من أي ارتباكٍ: حقًا، معكِ حقٌّ، هذهِ الدولُ تعرفُ إلى أين تسيرُ وما الذي تريدهُ، وبعضُ مبادراتها بدأت تنجحُ وتتطورُ، خاصةً في المجالِ الفنيِّ والأدبيِّ.

حركت رأسها تبدي إعجابها بكلامي، وقالت: إذا لم يكن لديك ارتباطٌ، يمكننا أن نتحركَ من هنا. ما رأيك بجولةٍ لطيفةٍ في أحضانِ

الطبيعةِ؟ توجدُ هنا غابةٌ ساحرةٌ، هدوءٌ وهباتُ النسيمِ، ولديَّ بحقيبتي قنينةٌ نبيذٍ أحمرٍ من بوردو. ستكونُ ليلةً جيدةً، وبعدها أستضيفك أو تستضيفني في غرفتك.

سحبتني من يدي برفقٍ، كأنها أخذت موافقتي.

تحركتُ معها، عطرها الساحرُ يمكنه أن يجعلَ أي رجلٍ في العالمِ يفقدُ عقلهُ وينصاعُ لها.

مشينا، غادرنا حديقةَ هذا المجمعِ الفندقيِّ، وبدأنا نتجولُ في منتجعٍ يلفه السكونُ والأضواءُ الخفيفةُ الناعمةُ التي تأتي من مصابيحٍ صغيرةٍ أرضيةٍ كأنها فوانيسُ قديمةٍ.

لم أشعر بالمسافةِ ولا الزمنِ، وجدتُ نفسي معها في مكانٍ يشبه الغابةَ.

جلسنا على مقعدٍ خشبيٍّ، وضعتُ حقيبتي اليدوية على الأرضِ، أخرجت من حقيبتها القنينةَ ومدتها لي مع المفتاحِ. أخذتها منها ونظرتُ إلى يدها اليسرى.

قالت: جرحتُ نفسي بسكينِ البصلِ، كان مؤلمًا ولكن الآن لا أشعرُ بأيِّ وجعٍ.

فتحتُ القنينةَ ثمَّ أعادتها لها. أخذتُ جرعةً وناولتني القنينةَ مرةً ثانيةً.

أخذتُ جرعةً وشعرتُ بلذعةِ النبيذِ الأولى، لكنها كانت ناعمةً ولذيذةً، ربما جودةُ النبيذِ تظهرُ لذتها عندما تشربُ مع جليسةٍ عطرةٍ وجميلةٍ مثل عيشة.

بدأنا نشربُ ببطءٍ، نتحدثُ حول ما طُرِحَ في هذا المؤتمرِ عن الشخصياتِ الخرافيةِ. فوجئتُ بعيشةٍ تقولُ: ألا ترى أن بعضَ الحكاياتِ تبالغُ في وحشيةِ (أمِ الدويسِ)؟ ألا تعتقدُ أنه يمكنُ أن تكونَ فيها أشياءٌ جميلةٌ، فهي ليست الغولةَ البشعةَ؟

قلتُ لها: ربما أن الخيالَ الشعبيَّ ابتكرَ هذهِ الغولةَ لهدفٍ أخلاقيٍّ بحسب ما يرى البعضُ، وتخويفَ الشبابِ والرجالِ من خوضِ مغامراتٍ نقولُ عنها اليومَ جريئةً، ولكن تفكيرُ الناسِ زمانًا يختلفُ. فالشابُ عليهِ أن يحافظَ على نفسهِ من أيِّ فعلٍ جنسيٍّ حتى ليلةِ الدخلةِ. توجدُ (أمِ الدويسِ) كخرافةٍ في الخليجِ والعراقِ واليمنِ، الاسمُ يتغيرُ وبعضُ الصفاتِ، لكن نفسُ التوظيفِ تقريبًا، وربما الكثيرُ من الشخصياتِ الخرافيةِ موجودةٌ في فكرِ وتراثِ كلِّ الشعوبِ من الشرقِ إلى الغربِ.

هزت (عيشةٍ) رأسها مبتسمةً، وقالت: أن يجدَ الرجلُ امرأةً جميلةً، ذاتَ عطرٍ ساحرٍ وجسدٍ مفعمٍ بالجمالِ، وأن تعطيه لذةً مدهشةً لا مثيلَ لها، فهذا حظٌّ لا ينالهُ إلا القليلُ من الرجالِ. الموتُ بعدها ليس خسارةً،

كذلـك أن تأكلـكَ امرأةٌ جميلةٌ أفضلُ من أن تمـوتَ ويأكلكَ الدودُ... هو حظٌّ، أليس كذلك؟

شـعرتُ بقشـعريرةٍ باردةٍ في ظهري، سـارعتْ (عيشـةُ) لتقتربَ أكثرَ وأكثرَ وتدفعني إلى الشربِ.

تذكرتُ أني لم أشـاهدْ ساقيها ولا مرةً. كانت نظراتي لها بحجمِ اللقطةِ المتوسطةِ السينمائيةِ الأمريكيةِ من الركبةِ وما فوقَ.

أمسكتُ بكفِّ يدي اليمنى ومسحتُ بكفِّها الناعمةِ. شعرتُ أن فوحَ عطرها يزيدُ، يملأُ هذا الفضاءَ، يلفُّني من كلِّ جانبٍ. أشعلتُ سيجارةً، شاركتني بالتدخينِ، أشعرُ بجسدها، تتعمدُ تحريكَ كتفيها وتصدمُ كتفي من حينٍ إلى آخرٍ.

سـألتني سؤالًا مفاجئًا: لو... لو، مثلاً، تواجهت مع (السِعْلاء) و(أمِ الدويـسِ) وتنازعتا عليـكَ، ثمَّ خيروكَ أن تكونَ ضحيـةً واحدةً منهما... من ستختارُ؟

ابتسمتُ رغم غرابةِ السؤالِ وقلتُ: يُقالُ إن (السِعْلاة) أو (السِعْلوةِ) من سـاحراتِ الجنِّ، وبعد أن تنالَ اللذةَ مـن أيِّ رجلٍ، تنقلبُ إلى مخلوقٍ بشـعٍ جـدًا وكريهٍ الرائحةِ. لم أسـمعْ إلى الآنَ عن تحـولِ (أم الدويسِ). لا أدري إن كان أكلُ إنسـانٍ يزيدُها جمالًا وعطرًا وعمرًا. أكيدٌ الواحدُ يختارُ

امـرأةً جميلةً معطرةً تأكلهُ ويسـاهمُ في زيـادةِ جمالها، ولكـن أتمنى ألا يزيدَ شهوتها في القتلِ.

ضحكتْ (عيشةُ) واقتربتْ مني أكثرَ: منطقك جميلٌ، أن تكونَ ضحيةً لزيادةِ جمالِ كائنةٍ ما. أنتَ تقدرُ الجمالَ، أتراني جميلةً؟

قلـتُ: جميلـةُ الجميـلاتِ، جميلةٌ وأكثـرُ، وروائـحُ عطورِكِ تنسـكبُ بدواخلي، سأظلُّ أتذكرُ هذا العطرَ كلَّ حياتي.

قالت: أتعتقدُ أنك ستعيشُ كثيرًا؟

قلـتُ: حقيقـةً، أنا أرى الموتَ في كلِّ وقتٍ وحـينٍ، وخاصةً منذ بدايةِ الحروبِ في بلدي اليمنِ. مرةً يكونُ صديقي، ومرةً أدعوهُ أن يكونَ ملاكًا رحيمًا. لا أعترضُ على الموتِ، ولكن أتمنى أن يكونَ لطيفًا، يأخذُ الأرواحَ بلطفٍ دون أن يشعرَ الناسُ بعذاباتٍ مؤلمةٍ وقاسيةٍ.

قالـت: يُقـالُ إن أمَ الدويـسِ لها يدٌ تشـبهُ المنجـلَ الحادَّ جـدًا، بضربةٍ واحـدةٍ تطيرُ الرقبـةَ، وهي أفضلُ وأمهـرُ من أيِّ سـيافٍ في التاريخِ. إذن فموتُها لطيفٌ وبديعٌ، سريعٌ لا يتركُ لحظةَ ألمٍ، شيءٌ مدهشٌ.

بدأتُ أحاولُ سـحبَ جسـدي دون أن تشـعرَ، وضعتُ يدها اليمنى على كتفي، تحركتْ نحوي لنكونَ متقابلين، السـاقُ بالساقِ، كأنها ترغبُ بعناقاتٍ وقبلاتٍ، جبهتي تتعرقُ.

همسـتْ: قلـتُ إن عطـري يُغريـكَ، أنـتَ شـاعرٌ، والشـاعرُ يشـعرُ بأحاسيسِ امرأةٍ تتدفقُ بالرغباتِ اللانهائيةِ.

بقيتُ صامتًا، جامدًا.

اقتربتْ مني ببطءٍ شـديدٍ وأخـذتْ بعضَ القبلاتِ. شـعرتُ بحرارةٍ تسري بجسـدي من أخمصِ قدمي إلى قمةِ رأسي. فقدتُ الشـعورَ بالزمانِ والمكانِ وكلِّ شيءٍ. كنتُ مبتسـمًا كالمسـحورِ، وقبلَ هذه القبلاتِ الأولى، شعرتُ برجفةٍ مزلزلةٍ لتركيزها الحديثَ عن (أمِ الدويسِ)، وكأنها تحاولُ تجميـلَ المـوتِ على يدهـا. أتمنى الآن أن تنسـى الحديثَ عن هـذه الغولةِ، وتحدثني عن عيشةَ.

لاحظـتُ في هـذه اللحظةِ بياضَ فخذيهـا، فهي ترتدي تنـورةً قصيرةً لنصفِ الفخذين، لكنها تلبسُ جواربَ طويلةً تغطي الركبتين والساقين، رأيتُ حذاءها الغريبَ كأن له شـكلَ صندوقٍ مسـتطيلٍ، هـذا النوعُ من الأحذيةِ لم أرهُ من قبلِ.

انتبهتُ لنظراتي وأخذتْ يدي لتلامسَ فخذيها، أشـعرُ بزيادةِ فوحانِ عطرهـا الجـذابِ، كلـما زادتْ رائحَتُها أجدني أفقدُ صـوابي، وأغوصُ في لحظاتٍ ساحرةٍ أعجزُ عن وصفها.

قالتْ: لا أُحِبُّكَ أن تَنظُرَ إلى سـاقي وقدمـي، تَعَرَّضتُ لحَادِثٍ قَدِيمٍ،

وأَلْبَسُ هـذا الحذاءَ الطِّبِّـيَّ الخَاصَّ. قَدَمَـايِ طَبِيعِيَّتَانِ، أَمْ أَنَّـكَ تَخَافُ أَنْ أَكُونَ أَنَا أُمَّ الدُّوَيْسِ؟

ضحكـتُ من تلـك الصدماتِ المخيفـةِ التي تتخلـلُ حديثنا، وقلتُ: تعيديـن تذكـيري بـأمِ الدويـسِ. يُقالُ لهـا إنها لها قدمٌ تشـبهُ قـدمَ الحمارِ، والثانية على شـكلِ منجلٍ. هذا الجسـدُ السـاحرُ لا يُعقلُ أن تكونَ فيهِ أيُّ تشوهاتٍ.

عادت لتلتصـقَ بي، تتدفقُ فيضاناتُ الرغبةِ والذهابِ إلى ترفِ اللذةِ. هنا رأيتها تبدأُ تزيلُ الشاشةَ الطبيةَ من يدها اليسرى.

فجأةً انطفأتْ الأضواءُ اللطيفةُ، بدأتْ أسـمعُ صـوتَ الريحِ تداعبُ أغصانَ الأشجارِ حولنا، يزدادُ حفيفُ الورقِ وأصواتٌ أخرى تتمازجُ مع بعضها. يزدادُ فوحانُ وعنفوانُ عطرها، وبرودةٌ خفيفةٌ بدأتُ أشعرُ بها في قدمي.

همستْ لي: نفعلُها، نغوصُ في عالمنا، لا تتذكرُ من أنتَ ومن تكونُ؟ لا تسـألني؟ لا تنظرْ إلى يدي اليسرى، سأجعلها خلفَ ظهرك، اخترتكَ من بينِ كلِّ الرجالِ، كنتُ مرئيةً لك وحدك. سيزيدُ جمالي هذه الليلةَ، سيزيدُ عنفـوانُ عطري، سـأغني هذه الليلـةَ لألفِ ليلةٍ وليلـةٍ، إلى أن أجدَ رجلاً يعشقُ الجمالَ، يحبهُ ويقدسهُ، ويقدمُ نفسه قربانًا من أجله.

كلُّ كلمةٍ وهمسةٍ تقولها تجعلني أتدحرجُ إلى عالمٍ آخر.

كأنها تقولُ: أنا أمُ الدويسِ، وأنتَ ضحيتي.

كأني قبلتُ بقسمتي وقدري، رغبتي وشوقي إلى عناقاتٍ ساحرةٍ جعلتني أنسى ما سيحدثُ بعدَ ذلك.

بني كلبان

تَكْثُرُ حكاياتُ بعضِ الجَمَّالَةِ الذين كانوا يعودونَ إلى مدينةِ بيتِ الفقيهِ اليمنيةِ بعدَ رحلاتِهم الطويلةِ جِدًّا، وخاصةً إلى مكةَ أو عصبٍ في إرتريا، أو رحلاتٍ أبعدَ من ذلك. وحكايةُ (بني كلبان) أو (بني ذئيبان) من أهمِّ تلكَ الحكاياتِ، وتُعَتَبرُ الأَكثرَ رُعبًا وإثارةً.

يقولُ البعضُ إن (بني كلبان) هم قومٌ يشبِهونَ البشرَ في شكلهم ويلبِسونَ الثيابَ ويتحدَّثونَ مثلَ أيِّ إنسانٍ، الفَرقُ أنهم يأكلونَ البشرَ. ولم يُتَمَّ تدوينُ مئاتِ الحكاياتِ والرواياتِ الشفويةِ التي يُقالُ إنها حدثتْ بدايةَ القرنِ الماضي والقرنِ الذي قبله.

كانت اليمنُ الشماليةُ معزولةً عن العالمِ وبعيدةً عن أيِّ تحضرٍ، فتكاثَرتْ الخرافاتُ والحكاياتُ الشعبيةُ الكثيرةُ عن الجنِّ والعفاريتِ ومخلوقاتٍ مثلَ بني كلبان. في طفولتي وحتى سنِّ العاشرةِ تقريبًا، كانت هذه الحكاياتُ من الأشياءِ الأَكثرِ دهشةً وتسليةً، خاصةً عندما تسمعها من بائعةِ اللحوحِ، السيدةِ (زوجة الطافي). تحكي وتنظرُ إليك بعينيها المتقدتينِ بخبرةِ الحاكي وصوتها الذي تلونه، تارةً ترفعه وتارةً تخفضه، تصمتُ، تلتفتُ يمينًا ويسارًا، تأخذُ تكركرُ بأرجيلتها وتنفثُ

الدخانَ عن يسارها. لم تدخلْ (زوجةُ الطافي) معهدًا لتعلم التمثيلِ وفنِّ السردِ، لكن لها موهبةٌ بديعةٌ، تضيفُ إلى الحكاياتِ من روحها وذوقها الخاص. نشتري منها اللحوحَ ونسمع الحكاياتِ، وقد يزدادُ خوفنا من العودةِ إلى بيوتنا، وننتظرُ لنجدَ شخصًا يتبرعُ لمرافقتنا. رغمَ ما ينتابنا من خوفٍ وجزعٍ، إلا أننا نعودُ إليها كلَّ مساءٍ. أتذكرُ إحدى قصصها المرعبةِ، وخاصةً قصةَ بني كلبان. سأحاولُ أن أحكيها لكم، ولكنها لن تكونَ بدهشةٍ لسانِ زوجةِ الطافي. يُقالُ إنه كان هناكَ تاجرٌ شابٌ يتصفُ بالأمانةِ، فسُميَ (أمين)، ولم يعدْ يتذكرُ أحدٌ اسمه الأول. كان يتصفُ بالورعِ والوفاءِ، وكان يتاجرُ بأموالِ مجموعةٍ من الناسِ البسطاءِ، حيث كان يشتري من المدنِ التهاميةِ المصوغاتِ الفضيةِ والمنسوجاتِ وكوافي القطنِ والخيزرانِ، ثم يحملها إلى مدنٍ بعيدةٍ، خاصةً إلى مكةِ المكرمةِ والمدينةِ المنورةِ.

ومن هناكَ يشتري ما تعرضه الأسواقُ من بضائعِ أهلِ الهندِ والسندِ وبلادِ فارسٍ، ليبيعها في أسواقِ اليمنِ الكبيرةِ، مثلَ مدينةِ الحديدةِ وبيتِ الفقيهِ، وقد تصلُ رحلتهُ إلى مدينةِ عدنٍ. الكلُّ يعرفُ هذا التاجرَ وينابيه الطيبُ الأمينُ، ولم يحدثْ أن وقعَ في نزاعٍ مع تاجرٍ آخرَ أو مع أحدِ أولئك الذين يستثمرونَ أموالهم القليلةَ في تجارتهِ. كان هذا التاجرُ محبًّا لوليِّ اللهِ، (أحمدَ بنَ موسى بن العجيلِ)، يزورُ ضريحَهُ قبلَ أن ينطلقَ إلى تجارتهِ،

ويـوزعُ صدقاتهِ على الفقراءِ الذين يرابطـونَ بجانبِ هذا الضريحِ، يفعلُ ذلكَ عند سفرهِ وعودتهِ، حتى أن البعضَ سماه محبَّ الوليِّ بن العجيلِ.

بحسـبِ روايةِ (زوجةِ الطافي)، فهذه القصةُ حدثت بعدَ شـهورٍ قليلةٍ من سـقوطِ مدينةِ بيتِ الفقيهِ في يدِ (الإمامِ أحمدَ بن يحيى بن حميد الدينِ)، والـذي كان في 26 سـبتمبر 1929م. وقبـلَ أن تدخـلَ إلى حكايـةِ (بني كلبان)، فهي أيضًا تحكي عن صمودِ المدينةِ وقوةِ رجالِها والمعاركِ الشرسةِ التي حدثتْ، وما مارسـه (الإمامُ الطاغيةُ) من ظلمٍ وقتلٍ ونهبٍ وسـلبٍ وتدنيـسٍ لمقـامِ وليِّ اللهِ بـن العجيلِ. فقد كانـت هذه المدينةُ رمـزَ المقاومةِ والصمـودِ، ولذلك كان العقابُ الوحشيُّ للإمامِ (أحمد) للمدينةِ ولأهلِها يفوقُ الوصفَ. كأنّ (زوجةُ الطافي) تمررُ مشـاهدَ من تاريخِ المدينةِ في كلِّ حكايـةٍ أو خرافـةٍ، وخاصةً في هـذه الحكايةِ كأنهـا تقولُ لنا: أيهـا الفتيان المعتدي الظالم، هو أكبرُ وحشيةٍ وعنفًا من كلِّ وحوشِ الكونِ.

هكذا أحلِّلُ الآن تجاورَ حكايةِ استباحةِ المدينةِ والقتلِ الوحشيِّ لشبابِها ورجالِها، وما حدثَ للتاجرِ (أمين) في بلادِ بني كلبانٍ.

نعـودُ إلى حكايتنـا، حيث اجتمعَ بعـضُ تجارِ البلـدةِ في الخفاءِ، وكان بحـوزةِ كلِّ واحـدٍ منهم القليـلِ من الجنيهـاتِ الذهبيـةِ والفضيةِ، وكان أملهـم أن يقبـلَ التاجرُ الأمـينُ ويتاجرُ لهم بهـا لكي يعودَ بالربـحِ الوفيرِ

كعادتـهِ، ويسـتطيعوا الوقوفَ مجـددًا في السـوقِ، وترميمَ مقـامِ وضريحِ الـوليِّ، وكذلكَ المسـاجدِ والجوامـعِ التي هُدمـتْ قبابُها ومآذنُهـا بمدافعِ الإمامِ.

وكانَ التاجـرُ الأمينُ يتحملُ المسـؤوليةَ، خرجَ مـن المدينةِ متوجهًا إلى مكةَ، ثم المدينةَ. وفعلاً، نجحَ وحققَ ربحًا وفيرًا لم يتوقعه في حياتهِ، توجهَ للعودةِ وهو يحلمُ بأن تسـاعدَ هذه الأربـاحُ في ترميمِ ضريحِ الوليِّ وبعضِ القبابِ والمآذنِ، وإعادةَ القداسةِ لها.

في ليلةٍ عاصفةٍ بالريحِ، وبينما كان عائدًا، وجدَ نفسهُ بوسطِ قريةٍ غريبةٍ لم يعرفهـا، فطرقَ أحدَ الأبوابِ، فتحَ له رجلٌ غريبُ الهيئةِ، أشـعثُ أغبرِ وملابسهُ غريبةٍ.

طلبَ (أمين) أن يبيتَ عندهُ إلى الصبحِ، فوافقَ الرجلُ وأدخلهُ كوخهُ. لم يطلـبْ (أمين) طعامًا ولا شرابًا، كلَّ مـا احتاجهُ المأوى والنومَ. وفعلاً، نامَ نومًا عميقًا، ولم يخطر في بالهِ أنه دخلَ عالمًا خطرًا.

اسـتيقظَ (أمـين) في صباحِ اليـومِ التالي ليجدَ نفسـهُ مقيدًا بالسلاسـلِ في مـكانٍ غريـبٍ، وحولهُ أشـخاصٌ يشـبهونَ البشرَ لكن هيئتهـمُ مريبةٌ، يسـيرونَ بظهورٍ محدبةٍ قليـلاً، وكأن أياديهم أطولُ من الأيادي العاديةِ، لا يلبسونَ من الثيابِ إلا ما يسترُ عوراتهم. كان الجميعُ يحدقونَ به واللعابُ يسيلُ من أفواههم.

شـعرَ بالخطرِ وبدأَ يتحسـسُ كيسَ المالِ الذي وجـدهُ بجانبهِ، وأحسَّ بأنه لم يُفتح.

بدأَ يكلمهم ويسـألهم عن سـببِ تقييدهِ، ظلوا يحدقـونَ فيه كما يحدقُ الذئبُ في فريستهِ. خاطبه أحدهم، وهو شيخهم، وقال له ببساطةٍ: مرحبًا بك في بني كلبانٍ.. أظنُّ أنك سمعتَ عنا؟

أصيـبَ (أمين) بالجمودِ وهو غيرُ مصدقٍ لما يسـمعهُ، فعادَ (الشـيخُ) ليعيدَ الترحيبَ والسؤالَ.

تلعثمَ أمينٌ وردَّ: نعم، نسـمعُ عنكم حكاياتٍ وقصصٍ يقولها الناسُ، وهم يختلفونَ في وصفكم، فالبعضُ يشبهكم بأنكم بشرٌ تشبهونَ الكلابَ، والبعضُ يقولُ إنكم تشبهونَ الذئابَ.

هنا بدأَ كلُّ واحدٍ ينظرُ إلى الآخرِ، ويتهامسـونَ بكلماتٍ غيرِ مفهومةٍ، يزدادُ سيلانُ لعابِ بعضهم، يحاولُ أحدهم أن يقتربَ من التاجرِ، فيسارعُ الشيخُ بردعهِ.

الشـيخ: أنـتَ من دخلتَ ديارَنا وطرقتَ بابَنـا، وكنا ننتظرُ أن نصطادَ أيَّ إنسانٍ منذ شهورٍ طويلةٍ، تعلمُ ما نأكلهُ؟

أمين: يُقالُ إنكم تأكلونَ لحمَ البشرِ.

الشيخ: وهل تعلمُ ماذا سيحدثُ لنا إذا لم نأكل مثلَ هذا اللحمِ؟ أمينُ:

الحقيقةُ لا، لا أعلمُ. الشيخُ: تضعفُ قوتنا، وتشيبُ رؤوسُنا، ويموتُ صغارُنا، ولا يحدثُ تزاوجٌ، يجبُ أن يأكلَ كلُّ واحدٍ منا لحمًا بشريًا ولو مرةً بالسنةِ، وقد ساقَك اللهُ إلينا، فأنتَ رزقنا وحبلُ نجاتنا من الفناءِ، ونحن طوالَ العامِ نصطادُ كما تصطادُ الذئابُ والحيواناتُ المفترسةُ، مما يوجدُ في الطبيعةِ من حيواناتٍ وطيورٍ، ولكنها لا تكفي لنظلَّ أحياءَ، أنتَ فردٌ ونحن جماعةٌ، والفردُ يضحي من أجلِ الجماعةِ.

أمين: حسنًا سيدي، كان يمكنكم أكلي وأنا نائمٌ، فلماذا انتظرتم؟

الشيخ: علينا عهودٌ ومواثيقُ بألا نعترضَ عابرَ سبيلٍ ولا حاجٍّ، ولا نأكلُ طفلًا أو امرأةً أو رجلًا عجوزًا، وأن ننتظرَ رزقَ الله. ومنذ مئةِ سنةٍ وفي كلِّ عامٍ يسوقُ اللهُ رزقنا مرةً وأحيانًا مرتينِ، فأنتَ رزقنا لهذا العامِ، سوف نغذيكَ ونجعلكَ سمينًا إلى الليلةِ المعلومةِ حيث نقيمُ حفلَنا وصلواتِنا لثلاثةِ ليالٍ، نغسلكَ، وبعدها نذبحكَ برفقٍ ونُحسنُ الذبحةَ، نشربُ دمكَ ونأكلُ لحمكَ وندقُّ عظمكَ، ولا يضيعُ منك شيءٌ.

أمين: سيدي، أنا مؤمنٌ بقدري ولا أعترضُ، ولكن أتسمحُ لي أن أعودَ إلى دياري وأعيدَ الأمانةَ إلى أهلها، ثم أودعُ أهلي وأعودُ إليكم ويفعلُ اللهُ ما يشاءُ.

هنا تحدَّث فوضى وهمهماتٌ، وكأنَّ الذين حوله فهموا ما قاله ويعترضون عليه.

صرخ فيهم شيخهم، فسكتوا جميعًا، وعمَّ الصمت والسكون.

الشيخ: اسمعْ يا هذا، ما يقوله الناس عنا فيه الكثير من الافتراء والتدليس، نحن عبيدُ الله مثلكم، ولكنَّ الله قدَّر علينا ما قدَّره، ورضينا بقدره. لا ندري كيف حدث ما حدث، ويقال إنَّ أبانا وأمنا أصلهما بشرٌ مثلكم، وأنَّ ذئبًا من ذئاب جهنم عضَّهما، فكنا من نسلهما على هذه الهيئة، فلسنا بالشياطين ولا الوحوش.

أمين: يا سيدي، أنا قبلتُ بقدري، ولكن لو تسمعُ حكايتي.

أشار إليه الشيخ أن يكمل.

أمين: أنا من مدينةٍ تُسمَّى بيت الفقيه في تهامة اليمن، وكنا نريد أن نعيش أحرارًا، فرفضنا ظلم إمامٍ ظالمٍ يُذلُّنا ويسرق قوتنا وأرضنا. فقام رجالٌ من قبيلتنا التي تُسمَّى (الزرانيق) بالثورة ورفض العبودية، فأرسل الإمامُ جيوشًا جرَّارة، فهزمنا جيشه، وحدثت بيننا معاركُ طويلةٍ، ولكنه رجلٌ حيلةٌ وخداعٌ وجيشٌ ودولة. وقبل أشهرٍ، كُسرنا، ودخل مدينتنا واستباحها، نهبًا وقتلًا، وأحرق وهدم قبابًا ومآذن بيوتِ الله، وجامعها الكبير، وهدم ضريحًا ومقامًا لوليٍّ الله مؤسس المدينة.

بعدها بشهورٍ قليلةٍ، حملني من بقي من تجار المدينة بالقليل من المال الذي أخفوه من جيش الإمام الفاسد الظالم. تاجرت لهم بالمال، وربحت

عـشرة أضعافٍ ما كنتُ أربحه، وقد تعاهدوا إن عدت إليهم أن يُخصَّص جـزءٌ من الربـح لترميم الضريح، وترميـم ما لحق من تدمـيرٍ لبيوت الله، لتعـودَ النـاسُ إلى صلواتهم وذكر الله. ولو متُّ هنا فسـتكون كارثةً كبيرةً عـلى قومي، وسـتظل بيـوتُ الله مهدمةً، وضريـحُ وليِّه الصالـح أحمد بن موسـى بن العجيل. وهناك أماناتٌ صغيرةٌ أيضًا أتمنى أن أوصلها، ولقد كانت معي دابةٌ، ولكني أضعتها، فالله المستعان على ضياع ما فوق ظهرها.

ابتسـم الشيخ، وظل صامتًا لبعض الوقت، ثم أشار إلى شابٍ عريض المنكبين، طويل القامةٍ، وقوي العضلات، فتحرك ذلك الشاب وكأنه فهم ما يأمر به الشيخ.

بعد لحظاتٍ عاد الشـاب وهـو يحمل قربتين من المـاء، إحداهما كبيرة ممتلئة بالماء، والأخرى صغيرة.

فرح أمين برؤية القربة الكبيرة، وسجد لله شاكراً.

سأله الشيخ: ما الأمر يا هذا؟

أجـاب: القربـة الصغـيرة فيها مـاءٌ، وأما الكبـيرة فهي وصيـةٌ وأمانةٌ طلبتهـا منـي سـيدةٌ أرملةٌ لها ابنـةٌ أجمل من القمـر، وقد أُصيبـت بفاجعةٍ بسـبب الحرب، ففقدت نطقها وسـمعها وبصرها، وأصبحت مشـلولةً. عرضوهـا على حكيـمٍ، فأوصى أن تشرب وتغتسـل لثلاث ليـالٍ من ماء

زمزم، وبعض الأعشاب، ووصف لي هذه الأعشاب والأرض التي تنبت فيها، وهي أرضُكم. تمتزج الحمرة بالصفرة، والقليل من اللون الأسود في حصاكم، وتربةُ أرضكم كأنها طحين الذرة، وبالصدفة انتبهتُ لدابتي تأكل رملكم.

قلت في نفسي: هذه هي أرضُ نبتةٍ صبار الشفاء، فلونها الزمردي البهيج يضيء، ولو لم تمسسه نارٌ. وفجأةً هبَّت ريحٌ عاتيةٌ فضيَّعت دابتي، ووجدتني بين دياركم، فطرقتُ بابكم مستجيرًا.

أوقفه الشيخ قائلاً: ألم يقل لك الحكيم إنَّ هذه النبتةً بأرضٍ خطرة؟

أجاب أمين: قال ذلك، وندم لوصفه أرضكم، ولكنني عندما لاحظتُ الفتاة، فقد سلبتني عقلي بجمالها الساكن المشلول، وقلتُ لأمها: يكون العلاج مهرها. فوافقت، وأنا كما ترى شابٌ، بلغتُ الثلاثين عامًا، ولم أتزوج. فقد كنتُ أعول عائلةً كبيرةً، وأوصاني والدي بألا أتزوج إلا بعد تزويج أخواتي الست. وقبل هذه الحرب، أتممتُ وصية أبي الأولى بتزويج أخواتي، ونويتُ أن أنفذ الوصية الكاملة وأتزوج.

أوقفه الشيخ مرة أخرى: أنت تريد أن تتزوج ثم تعود لتموت؟

أجاب أمين: إنها وصيةٌ في ذمتي، ولو بقي في حياتي ساعةٌ واحدةٌ.

ردَّ الشيخ: أنت هنا في الربع الخالي، وهي صحراءٌ فيها ما لا تعرفه، ولا

يعرفه أحدٌ من خلق الله. منهم الأشرار ومنهم الأخيار. ستحتاج شهورًا ذهابًا وعودةً، وقد تقع في يدِ قومٍ يقتلونك لمالك، أو هكذا يقتلونك لمجرد التلذذ بالقتل. وقد وصفت ما فعله بكم حاكمكم وجيشه الفاسد. قد تقع بيد فرقةٍ من هذا الجيش، وأنت تحمل ذهبًا كثيرًا. وحتى إن نجحت ووفيت بوعدك، فقد تعود جسدًا نحيلاً ضعيفًا أو مريضًا، ونحن لا يحق لنا أكلُ الضعيف الهزيل المتعب أو المريض أو صاحب العاهة.

يجيبُ أمين: سيدي، أعدك أن آكل من الطيبات، وأصبح سمينًا كثير اللحم والشحم، ولذيذ العظم.

الشيخ: أفهمك، لكن الوقت... يحكمنا الوقت. يجب ألا تمر خمسة أشهرٍ. أعيادنا وصلواتنا وأفراحنا مرتبطةٌ بك.

أمين: حسنًا، أنتم كما يبدو لي أقوياء، وتركضون كالريح البارقة. اجعل هذا الشاب يوصلني إلى بلدي ثم يعيدني إليكم، أعود وأعيد الأمانات، ثم أتزوج وأكمل وصية أبي ونعود.

الشيخ: هذا الشابُ هو ولدي الوحيدُ، ولستُ مجنونًا كي أسمعَ خداعك وأضحيَ بفلذةِ كبدي، وهو عريسُ هذا العام. أنتَ تحكي وتتحدث عن عنفِ حروبكم أيها البشر، وعن بشاعةٍ وقسوةٍ ووحشيةٍ بعضكم. نحنُ قبيلةٌ كاملةٌ نأكلُ بشرًا واحدًا في العام، ولا نأخذُ إلا من

يدخلُ أرضنا. وقبل أن نذبحه، فإننا نحسنُ إليه، ونسمحُ له بأن يستمتعَ بما بقي له من عمر. حقيقةً نحمدُ اللهَ أننا لسنا متوحشينَ كبعض البشر، أمثالِ إمامكم وجيشِ إمامكم. وأكيدٌ يوجدُ في هذا الكونِ مئةُ إمامٍ وحاكمٍ يحبونَ الحروبَ والدماء، ويدفعونَ بجيوشهم للقتلِ والتدميرِ والتهجيرِ وإفسادِ الحياة.

أمين: حقًا يا سيدي، لم يعد الكونُ آمنًا، ويكثرُ القتلُ والظلمُ، فلا رحمةَ لطفلٍ ولا مريضٍ ولا امرأةٍ ولا شيخٍ هرم. يشيبُ أطفالُنا بسبب الحروبِ الظالمةِ القاسية، وهناك من يجعلُ من القاتلِ بطلًا ومدافعًا عن الحقوق، وهم يدنسونَ كلَّ مقدس. النفسُ الإنسانيةُ مقدسةٌ عند الله وفي كل الأديان، ولكن تجارَ الحروبِ لا يعترفونَ إلا بأنفسهم وشرعيةِ وقداسةِ أنفسهم. ثقْ أن ولدك أمانةٌ في رقبتي وجسدي وحياتي، سأفعلُ كل شيءٍ كي أكونَ سمينًا ولذيذَ اللحمِ من أجلكم.. وهذا عهدُ الله.

يمدُّ (أمين) يده إلى (الشيخ)، والذي يظلُّ واقفًا والكلُّ منتظرٌ ردةَ فعله. فجأةً يمدُّ (الشيخ) يده ليقبلَ العهدَ، ويتحركُ الجميعُ لمدِّ أياديهم.

تتمُّ العهودُ والمواثيقُ، يكادُ (الشيخ) لا يفهمُ كيف مدَّ يده للاتفاقِ، وحتى بقيةُ الناسِ كأنهم غيرُ مصدقين بما فعلوه، لكنها عهودٌ تمتْ لا يمكنُ نكثُها أو خرقُها، حتى لا تحلَّ عليهم لعنةُ الفناء.

يتمُّ فكُّ قيودِ (أمين)، ويأتي الشابُ واسمه (ريح) ليتعرفَ على أمين ويأخذهُ في جولةٍ للبحثِ عن صبارِ الشفاءِ الزمردي، والذي يُقالُ إنه شفاءٌ لكلِّ داءٍ إلا داءَ الغباءِ بحسب ما يُقال هنا.

ظلَّ (أمين) ثلاثةَ أيامٍ في ديارِ (بني كلبان)، ثم أخذهُ (ريح) قبلَ الغروبِ مع قربةِ الماءِ ونبتةِ الصبارِ والأموالِ التي ربحها من تجارته، ومضى يركضُ بهِ الصحارى والقفارَ والوديانِ، وصل به إلى مدينةِ بيتِ الفقيهِ قبلَ الفجر. لم يشعرْ (أمين) بأي تعبٍ وأسرعَ ليدخلَ منزله، فأمه العمياء لم ترَ (ريح)، فرحتِ (الأم) بعودةِ ولدها ونهضتْ إلى الصلاة.

في اليومِ التالي لوصولِ (أمين)، بدأ يوصلُ الأماناتِ ويوزعُ الأرباحَ والخيرَ الوفيرَ إلى التجارِ، ثم طلبَ منهم نصيبَ الضريحِ وبيوتِ الله وبعضَ المالِ للفقراء. وكانت دهشتهُ أن معظمهم نكثوا وماطلوا، وأوفى بالعهدِ القليلُ منهم.

بهذا القليلِ كان عليه أن يفيَ بعهده. لحسنِ حظه، فإن (ريح) ساعده، فهو يمتلكُ قوةَ مئةِ رجل.

بعدَ الحربِ والدمار، أصيبَ معظمُ عمالِ البناءِ بالضعف. عملَ (أمين وريح) وبعضُ العمالِ ليلًا خشيةَ قسوةِ جنودِ الإمامِ الغلاظ، وتمكنَ (ريح) أن يعيدَ رأسَ منارةِ الجامعِ الكبيرِ لوحده.

لم يصدق الناسُ أن يعودَ رأسُ أطولِ منارةٍ بالمدينة، ويقالُ إنها أطولُ منارةٍ جامعٍ في الجزيرةِ العربيةِ في ذلك الزمان.

عودةُ رأسِ المنارةِ أصابتْ قائدَ القلعةِ وجنودَ الإمامِ بالرعب، وتناقلَ الناسُ أنها بركةُ (الشيخ أحمد العجيل) وأولياءِ الله، وساهمتْ هذه الحادثةُ في كسرِ حاجزِ الخوف. تسارعَ مئاتُ الناسِ إلى الضريحِ وإلى المساجدِ يهللونَ ويكبرونَ دونَ خوف. دخلَ الجنودُ القلعةَ وأغلقوا على أنفسهم، ولم يقدم (أمين) نفسه كبطلٍ ولم يُخبرْ أحدًا بسرِّ ريح.

عندما اطمأنَّ على ضريحِ الوليِّ وبيوتِ الله، ذهبَ إلى بيتِ الفتاةِ (نباته) ليقدم مهرَها، قربةَ ماءٍ زمزم ونبتةَ صبارِ الشفاء، وحدثتْ المعجزةُ، حيث شُفيتْ ونهضتْ بجسدها الجميلِ الساحر.

يومَ شفيتْ (نباته) وعلمَ الناسُ بذلك، قالوا إنها من بركاتِ الوليِّ وبقيةِ أولياءِ الله، ولم يعرفْ أو يُذكرْ أحدٌ دورَ أمين.

لم يتحسس (أمين)، فهو محبٌّ للوليِّ ولكلِّ الأولياء.

جاء ليخطب (نباته) بحسب العهدِ مع أمها، لكنَّ أحدَ التجارِ الكبارِ الأكثرِ مالًا طلبها لولدهِ العاطلِ الجاهلِ، ووافقتْ (الأم) لتنكثَ بوعدِها.

كاد أمين أن يُصابَ بالجنونِ، ورفضتْ نباته الزواجَ من غيرِ أمين.

جـاء أمين ليذكرهـا بعهدِ الله وميثاقهِ، وبأنه سـيدفعُ لها مهرًا سـخيا، لكنها ركبت رأسها.

أُصيبَ أمين بالحزنِ، وبدأ يفقد شهيته في الأكلِ.

ذكّـره (ريـح) بعهوده لقومـهِ بأن يأكلَ ويـشربَ ويحافظ على صحته، لكـن الهوى والوله في نباته جعله يهـذي ويدخلُ في حمى. فما كان من ريح إلا أن يتصرف لحلِّ المشكلة.

كان (أمـين) محبًـا للقراءة، وكلَّ ليلـةٍ يقرأُ لريح مـن قصصِ الجاحظ وحكمِ شمس الدين التبريزي والحكايات عن الوليِّ بن العجيل والأشعار الشعبية التهامية.

تعلّم (ريح) أشياءَ كثيرةً بالعيشِ مع بني البشر، شاهدَ كيف أن بعضَ التجارِ فرحوا بالمالِ الوفيرِ جدًا الذي لم يتوقعه خيالهم، ثم سرعان ما قالوا إنـه ربـحٌ متواضعٌ عندمـا طالبهم (أمـين) بنصيبٍ لبيـوتِ اللهِ والضريحِ والفقراء. وها هي (أم نباته) تفعل فعلتهم، أي الخيانة.

فكّر (ريح) أن يخيفها، فتسـلل في ظلمةِ الليل ودخلَ بيتها، وأظهرَ لها صورتـه الحقيقية. هنا أُصيبت بالرعب. هدّدها إن لم تُزوج نباته لـ أمين، فإنه سوف يعود ويأكلها، وخرج هاربًا.

في الصباحِ الباكر، طلب ريح من أمين العودةَ لخطبةِ نباته. كان أمين متعبًا، ولكن مع إصرارِ صديقه، وافقَ وذهب.

كانت (أم نباته) قد أُصيبت بهلعٍ شديدٍ أفقدها النطق، ولأنها كانت امرأةً سليطةَ اللسانِ وقويةَ البنيةِ، فقد غلبت زوجها. ولكن الآن وجد الزوجُ أن ما حدث تأديبٌ من الوليِّ الصالحِ، صاحبِ الكراماتِ، ونُسبت القضيةُ إلى الوليِّ.

تزوج أمين بحبيبته وزُفّت إليه في نفسِ الليلةِ.

ذاق أمين حلاوةَ متعةِ الحياة، فكانت كلُّ ليلةٍ كألفِ ليلةٍ وليلةٍ، إلى أن حبلت نباته. هنا ذكّره (ريح) بعهوده، فانتفض يشكره ويطمئنه.

قرّر (أمين) أن يقضي أسابيعَ أخيرةً ثم يذهبُ إلى قدره، وخصَّصَ الأسابيعَ الأخيرةَ للأكلِ الذي يؤدي إلى زيادةِ الوزن. أما ريحٌ، فاستغلَّ المدةَ الباقيةَ لتأديبِ الذين ينكثون العهودِ ونصرةِ المظلومِ وإخافةِ حرسِ الإمامِ الظالمِ، الجنودِ الغلاظِ الذين كانوا يهاجمون السوقَ ويأخذون ما يريدون دونَ دفعِ قيمته.

ذاعَ صيتُ الوليِّ وكلِّ الأولياء، فكلُّ نصرٍ على ظالمٍ أو خدمةٍ لفقيرٍ أو محتاجٍ كانت تُنسبُ إلى الأولياء.

وصلت بعضُ هذه الأخبارِ إلى (الإمام)، فضحك، ولكن زادَ

قلقُه وحاولَ تفجيرَ ونسفَ بعضِ الأضرحةِ والمقاماتِ. ولكن (ريح) أفشلَ معظمَ خططه، فزادَ ولعُ الناسِ بكلِّ الأولياء. كثُرت الزياراتُ، وأصبحت بهجةُ الناسِ بما فيها من طقوسٍ وفرحٍ وتسوقٍ وأهازيجَ.

لم يندم (أمينٌ) على أيِّ تضحيةٍ قدمها للآخرين، وخاصةً لزوجته نباته، فقد اكتشفَ أصالةَ روحها وحكمةَ منطقها وحلاوةَ لسانها. فهي لا تشبهُ أمها في أيِّ شيءٍ، كان يستشيرها في خطواته. لاحظت زيادته في الأكل، وفرحه لزيادةِ وزنه. وذاتَ ليلةٍ منعته من نفسها وحلفتْ عليه أن يُخبرها بكلِّ شيءٍ عن رحلته وعن صديقه ريح.

أخذَ عليها وعدًا ألا تخبرَ بشرًا ولا تمنعه من الوفاءِ بوعوده، بكت كثيرًا ووعدته بذلك.

حكى لها كلَّ شيءٍ وضرورةَ أن يعودَ إلى (بني كلبان)، ظلت تبكي راضيةً بقضاءِ الله، ودعته وحثته أن يغادرَ الليلةَ.

أخبرَ (ريح) بالتحرك، وكان (ريح) يريدُ أن ينجزَ بعضَ الأعمالِ، ولكنه قنعَ بما حققهُ، فقد أصبح الجنودُ الظلمةُ يسيرونَ كالفئرانِ المرعوبةِ. هم فقط يتظاهرون أنهم غيرُ خائفين، فيكثرونَ من لبسِ الزينةِ ووضعِ الزهورِ على رؤوسهم ونفخِ صدورهم والتباهي بالسلاحِ خلالِ الدورياتِ، وهم يتمنون أن يمضيَ النهارُ سريعًا. قبلَ الغروبِ يدخلونَ

القلعةَ ويغلقونَ أبوابها، يظلونَ يرتعدونَ، وبعضهم يتبولُ على نفسهِ أثناءَ النومِ. فعلَ بهم (ريح) أفعالًا لا تُنسى، وكشفَ طينتهمِ القذرةَ.

حملَ (ريح) صديقهُ (أمين)، وقد شاهدَ وداعَ الزوجةِ لزوجها وتشجيعها له رغمَ أنها حاملٌ وترعى والدته العمياء.

قالَ ريح لصَديقه: كم أتمنى أن تكونَ زوجتي بجمالِ روحٍ وأخلاقِ زوجتكَ.

ضحكَ أمينٌ وردَّ عليه: زادَ وزني من أجلِ زواجكَ صديقي... أنتَ تستحقُّ لحمي وعظمي، فقد قدَّمتَ لأهلِ المدينةِ ما ستحكى عنهُ أجيالٌ وأجيالٌ. فقد كنتَ كابوسًا للظالمينَ الطغاةِ وفرحةً للحالمينَ البسطاءِ وخادمًا لأولياءِ اللهِ الصالحين.

قالَ ريحٌ: أنتَ علمتني الحرفَ والحكايةَ. قوتي الجسديةُ ما كانت ستفيدُ لولا الحكمةُ التي تعلمتها من كتبِ الأوائلِ والشعرِ والأغانيِ والألحانِ. سأعلمُ قومي ما تعلمته.

عادَ (ريح) إلى أرضِه ومعه (أمين) وهو في أحسنِ حالٍ، رحَّبَ بهم (الشيخُ) وأكرمهما.

حكى ريحٌ لوالدهِ كلَّ ما حدثَ هناكَ والعلومِ التي تعلمها، فأصيبَ

الشيخُ بحزنٍ وهو يرى حزنَ ريحٍ على أمينٍ الذي تحولَ إلى صديقٍ. كيف يمكنُ أن يأكلَ الصديقُ لحمَ صديقه؟

كانَ أمين يطلبُ الطعامَ بكثرةٍ ليزيدَ وزنهُ أكثرَ وأكثرَ، وتأقلمَ على أجواءِ المكانِ وأحبَّ الناسَ، وأحبهُ الشبابُ.

كثرت همومُ ريحٍ وزادَ حزنهُ مع غروبِ كلِّ شمسٍ. كانَ يخرجُ بالليلِ في الفلاةِ لينشدَ أشعارًا وقصائدَ الوجعِ والفراقِ والصداقةِ، ويدعو اللهَ أن يرسلَ حبلَ النجاةِ للجميعِ.

أصبحَ (أمين) سمينًا جدًا وتغيرَ شكلهُ، لكنَّ روحهُ ظلت طيبةً مرحةً. زادَ تعلقُ الكثيرِ من الشبانِ والأطفالِ من (بني كلبان) به، وتعالت الأصواتُ بالبحثِ عن بديلٍ لليلةِ الموعودةِ.

سمعَ (شيخُ العشيرةِ) وشعرَ بكلِّ همسةٍ، وتمنى أن يسوقَ القدرُ أحدَ البشرِ حتى لو كان نحيفًا؛ لا يهمُّ، المهمُّ أن يدخلَ أرضهم بشرٌ بالخطأ.

تذكرَ ريحٌ الكثيرَ من المواقفِ التي حدثت له في بيتِ الفقيه، تذكرَ طمعَ ونفاقَ بعضِ التجارِ، وطمعَ بعضِ الناسِ مثلَ أمِّ نباته.

أرضُ (بني كلبان) ليست موجودةً على الخريطة، ولم يخرج منها أحدٌ من البشرِ حيًّا، فقط أمينٌ وهو الذي حفظ السرَّ. توجد ظواهرُ طبيعيةٍ

مهمـةٍ تعتـبرُ السـورَ المنيعَ لهـذه الأرضِ مثل الضبـابِ والريـحِ، وغيابُ الرؤيةِ وفقدانُ الشعورِ بالزمانِ والمكانِ بالنسبةِ للبشرِ من بني آدم.

اهتـدى (ريـحٌ) لفكـرةٍ زرعِ فخـاخٍ غـيرِ مبـاشرةٍ، وظلَّ ينشـرُ بعضَ الجنيهاتِ الذهبيةِ عسى أن تجلبَ صيدًا ثمينًا.

ولكـن لم يكـن هناك فائـدةٌ، بـدأت الاحتفـالاتُ وكان أمـينٌ راضيًا بقدرهِ، ثم جاءت الليلةُ الثانيةُ، ثم الثالثةُ.

بـدأت الليلةُ الموعودةُ وبقيت سـاعاتٌ قليلةٌ لتنفيذِ الطقسِ الأخير، لم تكـن الاحتفالاتُ مبهجةً بسـبب حـبِّ بني كلبان لأمـينٍ، ولكن في تلكَ الليلةِ حدثت المعجزةُ.

بالصدفـة، مـرَّ (تاجـرٌ) ثريٌّ ومعهُ سـبعةُ جمـالٍ محمَّلةٍ بالخـيرِ الكثيرِ، ورأى خادمـهُ يلتقطُ دينـارًا ذهبيًّا وجدهُ على الأرضِ، فأمـرهُ أن ينزلهُ من على الجملِ، وكان (الرجلُ) سمينًا جدًا.

طمـعَ الرجـلُ السـمينُ في الذهبِ، فأمـرَ خادمـهُ وحارسـهُ أن يظلوا وتابـعَ خطواتهُ الثقيلةَ يلتقطُ الذهبَ. لم يصدق أحدٌ، قبل أقلَّ من سـاعةٍ وجدوا هذا الرجلَ البدينَ جدًا وسطَ المكانِ، فتعالت الزغاريدُ والصراخُ والتصفيـقُ، وأمسـكوا بالرجـلِ البدينِ وأطلقـوا أمين الذي فـرحَ لفرحِ هؤلاءِ القومِ.

في اليومِ الثاني، حكى (ريحٌ) لصديقهِ ما حدثَ، وأنه سيعيدهُ إلى بيتِ الفقيهِ، ولكن أمين لم يوافقْ.

رفضَ بقوةٍ وقال: لن أعودَ بهذا الجسمِ البدينِ.

ضحكَ الجميعُ عليه.

بدأَ ريحٌ يدربُ صديقهُ بقوةٍ ليخفَّ وزنهُ، يمنعُ عنه الطعامَ، واستمرَّ بتدريبهِ لشهرٍ كاملٍ حتى تخلصَ من الوزنِ الزائدِ وقويت عضلاتهُ فأصبحَ قويًّا ووسيمًا كأنهُ فارسٌ مغوارٌ.

عندما طلبَ (أمينٌ) دعمَ صديقهِ، أخذهُ (ريحٌ) إلى حدودِ أرضِ بني كلبانَ وجدوا جثثَ الجمالِ السبعةِ والحارسِ والخادمِ، ووجدوا مالًا وفيرًا لا صاحبَ لهُ. أخذَ (ريحٌ) كيسًا ضخمًا فيهِ ما غلا ثمنهُ وخفَّ وزنهُ، وركضَ يحملُ صديقهُ.

وصلَ (أمينٌ) ليلةَ ميلادِ ولدهِ البكرِ، كانت الزوجةُ مطمئنةً وواثقةً من عودةِ زوجها.

فرحتْ بهِ كثيرًا، وفرحَ أمينٌ بها وبالمولودِ الجديدِ.

سألتهُ: ماذا ستسمي ولدك البكر؟

ابتسمَ وقالَ بعفويةٍ: ريح، اسمُ صديقي.

نـادى أمـينٌ على صديقـهِ، لكنَّ (ريـح) كان قد غادرَ إلى ديـارهِ ليغلقَ صفحـةً غريبـةً، وكأنـهُ اطمأنَّ على صديقـهِ ولا يريدُ أن يسـمعَ حكاياتِ وفوضى حياةِ بني البشرِ في هذه المدينةِ والكونِ بأكملهِ.

جمل العقبي

لا يزال الناسُ يتذكرون (جملَ العقبي) إلى اليوم، فهو الجملُ الفنّجريُّ المحبُّ للمشاقرِ من الفلِّ والياسمينِ والكاذي. ويُقالُ للرجلِ يشبهُ جملَ العقبي، أي للرجلِ الذي تعجبهُ المشاقرُ، يشمُّها ولا يؤذي المرأةَ أو يمسُّها. جملٌ يحيى عقبي حازَ على شهرةٍ كبيرةٍ ليس لأنه جملٌ ضخمٌ ورشيقٌ وأشهبُ، جسدهُ يميلُ للونِ الأحمرِ قليلاً كأنه الجونُ القويُّ. رأسهُ يرتفعُ إلى الأعلى، لا يحبُّ أن يخفضهُ أو ينكسهُ، شرسٌ مع الرجالِ ولا يقدرُ عليهِ إلا القلائلُ جدًا من الذين يعملونَ في معصرةِ زيتِ السمسمِ الشهيرةِ، والتي تُسمى باسمِ صاحبها يحيى عقبي، الرجلِ الثريِّ والمشهورِ بكرمهِ ونبلِ أخلاقهِ.

الشكاوي تتكاثرُ من هذا الجملِ المميزِ، فهو ليس شريرًا، ولكن لأنه فنّجريٌّ يشمُّ المشاقرَ ويبتهجُ بروائحِ العطورِ والبخورِ. يبدو هادئًا ولا يتدخلُ بشأنِ أحدٍ، يربطونهُ بحبالٍ قويةٍ أو سلاسلَ مخافةَ أن تمرَّ بقربِ المعصرةِ امرأةٌ مشقرةٌ ومبخرةٌ. ما أن يشمَّ المشقرَ النسائيَّ، فهو ينهضُ كالأسدِ، يتخلصُ من قيودهِ، يفكُّها، يركضُ نحو المرأةِ صاحبةِ المشقرِ.

أيُّ امرأةٍ ترى جملاً ضخمًا ورأسهُ تتجهُ نحوها فإنها تخافُ. يصرخُ

النـاسُ الذيـن يعرفونَ حكايتها بهـا: يا حرمةُ يا حرمـةُ، لا تخافي هذا جملُ العقبي، توقفي، توقفي.

لا أحـد يفكرُ في المجازفةِ للإمسـاكِ به، فقوتهُ تهـزمُ عشرةَ رجالٍ، وإذا جازفَ أحدهم بضربهِ تكونُ العاقبةُ وخيمةً، ولكن المهمُّ أن ينالَ مبتغاهُ.

كلُّ هـذه الفـوضى تحـدثُ بسـببِ المشـاقرِ النسـائيةِ. ينهـضُ الجملُ ويستأسـدُ، ليس لغرضٍ أن يعضَّ أو يضرَّ صاحبةَ المشـقرِ، لا يفعلُ شرًّا، فقط يشـمُّ المشـقرَ وصاحبةَ المشـقرِ للحظاتٍ ثم يتركها. يعـودُ إلى مكانهِ بلطفٍ وبخطواتٍ هادئةٍ، يسـتمتعُ باللحظةِ ويبركُ، يصبحُ أرقَّ من نسمةٍ وأجملَ من حمامةٍ عندما يشمُّ امرأةً بمشقرٍ وعطرٍ مميزٍ أنيقٍ.

معـصرةُ العقبـي تطـلُّ على الطريـقِ العامِّ الواسـعِ الذي يصـلُ ثلاثَ حاراتٍ ببعضها، والنسـاءُ يسـلكنهُ لما فيهِ من سـهولةٍ وأمانٍ. الذي يؤرقُ صاحبـاتِ القلـوبِ الضعيفـةِ هـو جمـلُ العقبي، مـن يمتلكنَ الشـجاعةَ والتجربةَ أصبحنَ يعرفنَ ما يريدهُ. يتوقفنَ للحظاتٍ، يشمُّ المشاقرَ الأنيقةَ يتركهن بسلامٍ.

أبو كيس

كنا نتسابقُ إلى بيتِ (المخاوية) بائعةِ العيشِ، كانت تمنحُ كلَّ واحدٍ من الأطفالِ قرصَ عيشٍ صغيرِ الحجمِ ولذيذِ الطعمِ يُسمَّى (كعلول)، العيشُ التهاميُّ الذي يُصنعُ من أنواعِ الحبوبِ المحليةِ وخاصةً الدخنِ الذي تشتهرُ بزراعتهِ تهامةُ اليمنِ. بيتُنا بحارةِ المحازرةِ بمدينةِ بيتِ الفقيهِ، وهي عاصمةُ القضاءِ والناحيةِ والتابعةُ لمحافظةِ الحديدةِ. تنقسمُ المدينةُ إلى عدةِ حواري(المحازرة، الحوك، العلاوية، الهنود، الصليفينُ، الشمة، حارةُ الأخدامِ والعمارة).

كبرتِ المدينةُ وظهرت حاراتٌ جديدةٌ بعد عودةِ المغتربينَ وحربِ الخليجِ، توسعتِ المدينةُ وتغيرتْ الكثيرُ من ملامحها ودخلتْ عاداتٌ جديدةٌ، لكنني هنا أتذكرُ مدينتي في منتصفِ الثمانيناتِ من القرنِ الماضي حيث شاهدتُ لأول مرةٍ (أبو كيس) وكنتُ تقريبًا في الصفِّ الثاني أو الثالثِ الابتدائيِّ.

مدينةُ بيتِ الفقيهِ وتُسمى عاصمةَ الزرانيقِ، تمتدُّ قراها من جبالِ ريمةَ شرقًا إلى البحرِ الأحمرِ غربًا، تشتهرُ بأكبرِ سوقٍ شعبيٍّ في اليمنِ، ويُسمى سوقَ الجمعةِ. يأتي الناسُ من كلِّ فجٍّ عميقٍ، من السهولِ والجبالِ ومن

مدنٍ ومحافظاتٍ كثيرةٍ، وجوهٌ كثيرةٌ تدخلُ المدينةَ وتغادرُها في نفسِ اليومِ وقد يظلُّ البعضُ فيها لأيامٍ والبعضُ يحبُّها ثم ينتقلُ إليها.

في إحدى صباحاتِ أحدِ أيامِ الجمعةِ، لأولِ مرةٍ رأيتُ (أبو كيس) وكنتُ طفلاً صغيرًا بالثامنةِ أو التاسعةِ من عمري، جئتُ إلى بيتِ المخاويةِ لشراءِ العيشِ، رأيتهُ منزوِيًا بركنٍ وبجانبهِ كيسٌ من القماشِ، كيسٌ بلونٍ كاكي، ملامحُ الرجلِ لا تدلُّ أنهُ من أهلِ المدينةِ رغمَ ملبسهِ الذي يشبهُ الملبسَ التهاميَّ وكوفيتهِ القطنيةِ والشالِ الأزرقِ الذي يضعهُ على كتفهِ.

لم أفهم لماذا بقيتُ أراقبُ كلَّ حركاتهِ وأتمعنُ في هذا الكيسِ بجوارهِ ولديَّ فضولٌ لمعرفةِ ما فيهِ، استرقتُ إلى بعضِ همساتِ بعضِ الرجالِ الكبارِ وكانتْ أسئلةٌ كثيرةٌ حول الرجلِ والكيسِ، أكلَ الرجلُ رغيفَ عيشٍ ومدَّ بقصعةٍ معدنيةٍ إلى المخاويةِ لتصبَّ له بعضَ الشايِّ، شربهُ بسرعةٍ رغم سخونتهِ، نهضَ، حملَ كيسهُ على ظهرهِ وخرجَ، يومها خرجتُ وراءه بلحظاتٍ ولكنه اختفى تمامًا.

في الصباحِ التالي لم يأتِ (أبو كيس) وهذا ما أطلقهُ عليهِ الرجالُ في بيتِ المخاويةِ.

قال أحدهم: ذلك الرجل، أبو كيس شكلهُ غريبٌ وليس من البلادِ، وإن شاء اللهِ لا تكون وراءهُ مصيبةٌ.

قـال آخر: شـوفتم، كان حريصًـا على الكيـسِ، واللهِ يسـترُ تكون فيهِ مصائبُ.

تعـددت الآراءُ حتى أن أحدهم قـال: ربما يكونُ الحكيمَ الخضرَ الذي يظهرُ في شـكلِ رجلٍ غريبٍ أو متسولٍ ليمتحنَ كرمَ ومعادنَ الناسِ، فإذا أكرمـهُ أحـدٌ يجازيهِ بمالٍ وفـيرٍ ويـتركُ وراءهُ رائحةً عطرةً تظـلُّ في المكانِ لأيامٍ.

لكـنَّ (أبو كيـس) لم يدفعْ ثمنَ قـرصِ العيشِ ولم يكافـئْ المخاويةَ ولم يتركْ أيَّ رائحةٍ عطرةٍ.

بدأت تحدثُ أشـياءُ غريبـةٍ في مدينتنا، وأثارت الكثـيرَ من المخاوفِ، حدثت حـوادثُ سرقاتٍ في السـوقِ والبيوتِ وحـوادثُ اختفاءِ فتياتٍ، دارت الكثيرُ من الشـائعاتِ حولَ (أبـو كيس) الذي كان يظهرُ فجأةً وفي أماكـنَ متعـددةٍ وبعدها يختفـي تمامًا، لم يكـن يوجدُ أيُّ أدلةٍ أنـه الفاعلُ، شكلهُ المريبُ وكيسهُ الغريبُ خلقَ ما يشبهُ الخرافةَ، قيل إنه يختفي بسرعةٍ عندما يهمُّ أيُّ شخصٍ بملاحقتهِ.

رأيـتُ (أبو كيس) للمرةِ الثانيةِ وأنـا في الصفِّ الأولِ الإعداديِّ، بعدَ نهايةِ المدرسـةِ مـررتُ بمكتبـةِ العياني الموجودةِ في سـوقِ القـماشِ، كنتُ أنتظـرُ العـددَ الجديدَ من مجلةِ «ماجد» المصورةِ والتـي كانت تصلُ بفارقِ

زمنيٍّ يصلُ إلى ثلاثةٍ أو أربعةِ أسابيعَ لكنها تصلُ إلى مدينتنا بأعدادٍ قليلةٍ. أتذكرُ أبطالها، خاصةً كسلانٍ جدًا، زكيةَ الذكيةِ، المحققَ خلفانَ والبحثَ عن فضولي.

يتميزُ سوقُ القماشِ بسقفهِ المسقوفِ المرتفعِ ووجودِ الظلِّ والهواءِ العليلِ. رأيتُه، نعم هو (أبو كيس)، نفسُ الهيئةِ والشكلِ ونفسُ لونِ الكيسِ. يظلُّ يحملُ الكيسَ على ظهرهِ رغمَ أنه يجلسُ لوحدهُ طلبًا لنسماتٍ هوائيةٍ منعشةٍ. تحدقُ فيهِ بعضُ العيونِ لكن لا يقدرُ أحدٌ على الاقترابِ منهُ أو تفتيشِ كيسهِ.

للمرةِ الثانيةِ حدثتْ أحداثٌ غريبةٌ ومخيفةٌ في المدينةِ مع عودتهِ. في اليومِ التالي سمعنا بثلاثِ حوادثَ جعلتْ المدينةَ تضجُّ بالشائعاتِ. سُرقتْ سيارةُ مديرِ الشرطةِ ووجدوا فتاةً سمراءَ من قريةِ الأخدامِ مقتولةً في المقبرةِ الكبيرةِ المعروفةِ بمقبرةِ المصلى، والحادثةُ الثالثةُ سرقةُ أحدِ محلاتِ الذهبِ بسوقِ الذهبِ المجاورِ لسوقِ القماشِ.

الكلُّ يقولُ إنَّ الفاعلَ للجرائمِ هو (أبو كيس)، لذلك تحركتْ دورياتٌ من الشرطةِ للبحثِ عنه وخصصَ كلُّ عاقلٍ حارةً مجموعةً من الشبابِ للبحثِ عنه وحراسةِ الحاراتِ بالليلِ. تمَّ المناداةُ في الأسواقِ والجوامعِ بالحذرِ من هذا المجرمِ والتحذيرِ من خروجِ الأطفالِ أو الفتياتِ ليلاً.

كثرتْ الشائعاتُ وفُتِحَ تحقيقٌ رسميٌ لأول مرةٍ وبعد أسبوعٍ تمَّ اكتشافُ سرِّ قتلِ الفتاةِ السمراءِ والقبضِ على ثلاثةِ شبابٍ استدرجوها وفعلوا بها ثم قتلوها، وفي الأسبوعِ الثاني تمَّ القبضُ على مجموعةٍ من الشبابِ بتهمةِ سرقةِ محلِّ الذهبِ، واعترفوا بجريمتِهم ولكن لم يتم القبضُ على سارقِ سيارةِ مديرِ الشرطةِ.

المرةُ الثالثةُ التي رأيتُ فيها هذا الرجلَ بعدَ تخرُّجي من الثانويةِ وقبلَ سفري إلى بغداد للدراسةِ، إنه هو (أبو كيس) جلابُ المصائبِ، لم يتغيرْ شكلهُ ولا حركاتُهُ، لا يتحدثُ إلى أحدٍ ويخافُ الناسُ النظرَ إلى وجههِ وعينيهِ، يُقالُ إنها تبرقُ بشرارةٍ تُسببُ العمى.

هذه المرةُ رأيتُه في سوقِ القاتِ وكنتُ متأكدًا أننا سنسمعُ عن كارثةٍ ما في اليومِ التالي.

حدثتِ الكارثةُ في المساءِ وحدثَ حريقٌ ضخمٌ بمخازنَ قريبةٍ من السوقِ التجاريِّ، قيل إنَّ تلك المخازنَ تحوي أطنانًا كثيرةً من الرزِّ والسكرِ والدقيقِ والأسمنتِ، كنا أيامَها نعيشُ تطورَ أزمةٍ اقتصاديةٍ خانقةٍ تعصفُ باليمنِ أدتْ إلى موجةٍ غلاءٍ رهيبٍ في الموادِّ الغذائيةِ وموادِّ البناءِ، استغلتْ مجموعةٌ من التجارِ هذه الأزمةَ وكانوا يخفونَ البضائعَ لبيعها بسعرٍ مرتفعٍ، وجاء (أبو كيس) ليحرقَ أكثرَ من عشرةِ مخازنَ

كبيرةٍ، هذه المرةُ سمعتُ الكثيرَ من الناسِ يشكرونه لأنه لقنَ هؤلاء درسًا كبيرًا لاحتكارهم وتلاعبهم بقوتِ الناسِ.

سافرتُ إلى بغداد للدراسةِ ثم عدتُ إلى اليمنِ وبعدها سافرتُ إلى فرنسا للدراسةِ.

مرتْ سنواتٌ طويلةٌ ولم أرَ هذا الرجلَ الغريبَ.

في أبريلَ 2010 كنتُ مسافرًا إلى مدينةِ دبي، بالطائرةِ التقيتُ بالفتاةِ الجميلةِ اللبنانيةِ رانيا. تعرفتُ على هذه الفتاةِ خلال مهرجانٍ ثلاثةِ أيامٍ للسينما في مقهى بابليون بباريس في أبريلَ 2007 وكانت طالبةً ماجستيرٍ في اللغةِ الفرنسيةِ ومحبةً للسينما. حضرتُ عرضًا لأحدِ أفلامي ونشأتْ بيننا صداقةٌ ثم انقطعَ تواصلنا وها أنا الآن ألتقي بها مجددًا.

فرحتُ أنها أيضًا مدعوةٌ في هذا المهرجان، ولحسنِ الحظِّ فقد نزلنا بفندقِ رويال كونتيننتال في دبي، غرفتُها بجوار غرفتي. لم يتغيرْ شكلُ (رانيا) الشقراء الأنيقةِ، كانتِ الليلةُ الأولى هادئةً، حضرنا معًا حفلَ الاحتفالِ الفخمِ الباذخِ، أخبرتني أنها ستقضي بقيةَ الليلِ مع خالتها المقيمةِ في دبي وأن نلتقي بالغدِ.

عدتُ إلى الفندقِ متأخرًا بحدودِ منتصفِ الليلِ، لم أجدْ الرغبةَ بالنومِ، تمشيتُ في الحديقةِ الصغيرةِ القريبةِ من بوابةِ الفندقِ، وهنا رأيتُ فتاةً

ساحرةَ الجمالِ، كانت تتأرجحُ بهدوءٍ على أرجوحةٍ بحديقةِ الفندقِ، مررتُ بجانبها، ابتسمتْ لي، كأنها تشجعني أن أقتربَ منها، حرّكتْ رأسها، غمزتْ بعينيها، كأنَّ شيئًا ما يدفعني للتقربِ لمجردِ محادثةٍ لطيفةٍ، لم تكن لي نياتٌ أخرى.

تقربتُ منها خطواتٍ، زادتْ ابتسامتها ورحبتْ بي، ظننتُها من ضيوفِ المهرجانِ.

عرفتني بنفسها وقالت: أنا فريشتا، أنا فارسيةٌ، أعملُ هنا فتاةَ ليلٍ، وإنْ أحببتَ ليلةً ممتعةً تدفعُ ألفَ درهمٍ.

تجمّدتُ في مكاني، اعتذرتُ لها فلم أكنْ أملكُ الكثيرَ من المالِ، ولم أكنْ أفكرُ بفعلِ شيءٍ، حقيقةً تشغلني (رانيا) وتملأ تفكيري، شعرتُ أنها تشبهُ (رانيا) كثيرًا، عرضتُ عليها أن نشربَ فنجانَ قهوةٍ إنْ أحبّتْ، لكنها اعتذرتْ وأنها هنا للعملِ فقط ويمكنني أن أدفعَ لها مئةَ دولارٍ ولا يمكنها أن تصعدَ معي بأقلَّ من هذا المبلغِ.

بدأتُ أنسحبُ بلطفٍ، المفاجأةُ هنا وأنا أنظرُ في المكانِ، إنه هو، (أبو كيس)، ماذا يفعلُ في دبي؟

انتبهتُ (فريشتا) لحالتي وذهولي، نظرتْ إلى المكانِ، هي الأخرى أصيبتْ بالذهولِ، أسرعتُ تجرني إلى دخولِ بوابةِ الفندقِ، سحبتني إلى ركنٍ، رأيتها ترتجفُ مذعورةً.

سألتُها عن السبب؟

همستْ لي بصوتٍ مرتعشٍ: إنه هو، أبو كيس، الجنيُّ الذي يكرهُ بناتِ الليلِ ويشقُّ بطونهنَّ، لا يدري أحدٌ ما يوجدُ في كيسه.

بدأتُ أحللُ كلامَها وأستعيدُ الحكاياتِ التي قيلتْ عنه في مدينتي وما كان يحدثُ عند ظهورهِ، ولكن هنا وفي دبي وفي هذا الفندقِ الفخمِ جدًا! كيف سمحوا له أن يدخل؟

حكتْ لي (فريشتا) بعضَ الخرافاتِ الفارسيةِ وحكاياتٍ من بطولةِ هذا (الجني)، لكن حكاياتٍ وحوادثَ غريبةٍ حدثتْ لبعضِ فتياتِ الليلِ في دبي والكثيرُ منهنَّ يتهمنَ الجنيَّ أبو كيسٍ.

بقيتُ مع (فريشتا) ما يقربُ نصفَ ساعةٍ، ثم طلبتْ مني أن أنظرَ إلى المكانِ وهل لا يزالُ موجودًا هناك؟ تحركتُ بخطواتٍ بطيئةٍ وخرجتُ من البوابةِ، لم أجده، اختفى كعادتهِ.

عدتُ إلى (فريشتا) وأخبرتها لتطمئنَّ.

لكنها أمسكتْ بي وقالت: ربما تكونُ آخرَ ليلةٍ في عمري، خذني معك إلى غرفتك هذه الليلة ولا أريدُ أيَّ مالٍ.

بقيتُ صامتًا واجمًا للحظاتٍ.

هزّتني وقالت: أرجوك، أحميني منه، لم تعد هذه المدينةُ ولا أيُّ مكانٍ أمانًا لأمثالي، نعيشُ على هامشِ الحياةِ ومصائرُنا معلقةٌ، نهاياتُنا بائسةٌ والكلُّ يظنُّ أننا سعداءٌ، أبو كيسٍ ومئةُ أبو كيسٍ يطاردوننا، أشعرُ أنك طيبٌ وستفهمني.

نهضتُ، أمسكتُ بذراعي، سحبتني إلى ثلاجةٍ فيها مشروباتٌ غازيةٌ ومشروبُ شاني، وضعتْ في حقيبتها عدةَ علبٍ وزجاجةَ ماءٍ معدنيَّةٍ كبيرةٍ، بعدها تحركنا إلى المصعدِ ثم غرفتي.

أنتابني الشعورُ بالخوفِ الجديدِ مع دخولنا الغرفةِ، تحدثني نفسي وتهمسُ لي، أنت هنا ضيفٌ وغريبٌ، قد تكونُ هذه الفتاةُ بوابةً لألفِ مشكلةٍ ومشكلةٍ.

جلست (فريشتا) على طرفِ السريرِ، خلعتْ حذاءها، خلعتْ شميزها الحريريَّ والذي كان أيضًا بلونِ كاكي يشبهُ لونَ ملابسِ وكيسِ أبو كيس.

فتحتْ حقيبتها وأخرجتْ قنينةَ فودكا، تحركتْ لتضعها على طاولةٍ وخلال دقائقَ أعدتْ الكؤوسَ، فتحتْ زجاجةَ الفودكا وعلبةَ مشروبِ شاني.

أخافُ من الفودكا وكثيرًا ما تحدثُ لي حكاياتٌ لا تُصدقُ معها،

ناولتني كأسي، ترددتُ في قبولهِ، أصرتْ أن أشاركها وأنها ليلةٌ متعةٌ مفتوحةٌ لكل شيءٍ ولا تريدُ المالَ. ما أن أنتهي من كأسِ الفودكا الأولِ تنفتحُ شهيتي لشربِ الثاني والثالثِ وأفقدُ قدرتي على الحسابِ، لماذا ظهر لنا هذه الليلة هذا الجني الغريب؟ وهل يجب أن أشكره؟ فهو سببُ وجودِ (فريشتا) معي هنا.

كلُّ ما فيها جميلٌ ويفوقُ أيَّ وصفٍ وجمالٍ، شبهها القريب جدًا من (رانيا) يحيرني كثيرًا، رقصتْ (فريشتا) بعد تناولها الكأسَ الثاني، أمسكتْ بتفاحةٍ وأخذتْ قضمةً، بقيتْ تمضغها برفقٍ، رمتْ لي بالتفاحةِ وكأنها تريدني أخذَ قضمةٍ من نفسِ الموضعِ. بدأتْ تتحدثُ عن الموتِ عندما يحدثُ بقسوةٍ ولحظاتِ الألمِ، اللحظاتِ ثم الثواني الأخيرةِ في حياةِ أيِّ إنسانٍ، لحظةُ خروجِ الروحِ ورفعِها إلى عالمٍ آخرَ وبقاءِ الجسدِ القابلِ للتعفنِ.

لا أتذكرُ تفاصيلَ تلك الليلةِ كاملةً، إنها الفودكا التي عصفتْ بي وأتمنى أنها نالتْ متعةً جيدةً.

نهضتُ في الصباحِ التالي وأنا أعاني قليلاً من آثارِ الثمالةِ، لم أجدها. بقيتُ أتأملُ المكانَ وأشمُّ بقايا عطرها، داهمتني سيلٌ من لقطاتِ الليلةِ المترفةِ بلذةٍ مختلفةٍ، لم تتركْ (فريشتا) أي أثرٍ ولا رسالةٍ ولا حتى رقمَها.

استعددتُ للخروجِ وتناولِ الفطورِ، كنتُ بحاجةٍ إلى برميلِ قهوةٍ عسى أن يساعدني في ترتيبِ الصورِ واللقطاتِ المتناثرةِ وأصواتِ ضحكاتِ وهمساتِ (فريشتا). أخيرًا بدأتُ أقنعُ نفسي أنها تجربةٌ مرتْ ويجبُ أن لا أفسدَ رحلتي بفريشتا أو بهذا الجني. لا أدري ما الذي دفعني إلى ذلك المكان حيث رأيتُ فريشتا وأبو كيس، المفاجأةُ التي حدثتْ لا تُصدقُ.

تجولتُ في المكانِ الذي كان يجلسُ فيه ذلك (الجني)، وجدتُ شيئًا ملفوفًا بداخلِ كيسِ نايلونٍ صغيرٍ، التقطتهُ وشعرتُ برعشةٍ وأنا ألمسُ مبلغًا جيدًا من المالِ، ما يقربُ ثلاثةَ آلافِ درهمٍ. نعم، وجدتها حيث كان يجلسُ أبو كيس. هل سقطَ المالُ من كيسهِ؟ أم أنه تركه لي وخاصةً أني كنتُ وقتها أعيشُ ظروفًا صعبةً؟

أخذتُ المالَ وأنا غير مصدقٍ لكل هذه المصادفاتِ، تحركتُ لمتابعةِ برنامجِ المهرجانِ وغصتُ في ظلماتِ القاعاتِ السينمائية، كلما خرجتُ من قاعةٍ وأشعلتُ سيجارةً وأشربتُ فنجانَ قهوةٍ، ثم أعودُ للدخولِ إلى قاعةٍ أخرى.

انتهى اليومُ الثانيُ للمهرجان، عدتُ إلى الفندقِ قبل منتصفِ الليلِ، ذهبتُ إلى ذلك المكانِ حيث التقيتُ بـ (فريشتا)، لم أجدها ولم أجد الجنيَّ أبو كيس.

بقيتُ أتسكعُ في بهوِ الفندقِ ومقاهيهِ كأني أنتظرُ (فريشتا)، عدتُ إلى المكانِ حيث الأرجوحةِ، ظننتُها (فريشتا)، أقتربتُ منها، إنها (رانيا)، رحبتْ بي وسألتني عن يومي ثم أمسكتْ بي وسحبتني معها إلى غرفتها، فتحتْ زجاجةَ نبيذٍ أبيضٍ وناولتني كأسًا، حدثتني عن خالتها هنا وعن ما حدث معها خلال السنواتِ الثلاثِ الأخيرةِ، حلمها الذي يقاومُ الصمودَ بأن تكونَ ممثلةً نجمةً.

ضحكتْ ساخرةً من حالها: ها أنا أكملتُ الماجستيرَ وسجلتُ بالدكتوراةِ لكن حقيقةً، نفسي أن أجد قصة مثل قصصك قصةٍ مثلَ قصصك. على فكرة، أنا قرأتُ بعضَ رواياتك وقصصك التي بعثتها لي، والله كثيرٌ مهضومةٌ، أنت تتخيلُ كثير فتياتٍ ونساءٍ يعملنَ علاقاتٍ، ككاتبٍ أرى أنك تستمرُّ أكثرَ في الفنتازيا... لكن قل لي، دبي بسحرها وجمالها ألم تُوحي لك بقصة؟ أحكي لي كيف كانت ليلتك البارحة؟

ترددتُ في أن أحكي لها قصةَ (أبو كيس وفريشتا)، أشعلتْ (رانيا) سيجارةَ حشيشٍ صغيرةٍ ودعتني لمشاركتها، أخذتُ بعضَ الأنفاسِ من هذه السيجارةِ الصغيرةِ وصبّت لي الكأسَ الثانيَ وهنا تدفقت حكايتي، ظلتْ منصتةً بشغفٍ.

أكملتُ الحكايةَ، ظلتْ هي صامتةً ثم شربتْ جرعاتٍ من كأسها وقالت: عليه العمى، هذا جنيٌ رهيبٌ وعليه في لبنان مئةُ حكايةٍ وحكايةٍ،

أنا بحياتي شـفتُه مرةً واحدةً مع رفيقاتي وكنا في رحلةٍ بغابةٍ وخلاص قلنا نهايتنا، وخاصةً ما في واحد بالعالم يعرف شـو مخبئٌ في كيسـه، واحدة من رفقاتي تعتقدُ أنه يضرُّ أيَّ بنتٍ ما لها حبيبٍ وتكونُ البنتُ في أمانٍ لو واحدٌ يحبها أو هي تحبُّ واحدًا.

سألتُها: تعتقدين ما راح يعمل شيئا شريرًا لفريشتا؟

ضحكـتْ وقالت: يجوز فريشـتا تكون فتاةً حقيقيةً وهي تشـبهني كما قلتِ، ويجوز تكونِ أنتِ تخيلتها، يمكن تكون معجبةً بي أنا وخيالك خلق فريشتا.

بقيـتُ صامتًـا لبعـض اللحظات، ثـم حاولـتُ أن أقنعها أن فريشـتا حقيقية وليست متخيلة.

بعـد مضي أكثر من سـاعةٍ في الحديـث، طلبتُ منهـا أن ننزل إلى ذلك المكان وربما نجدها. نزلنا وتجولنا في المكان، ولكننا لم نجد أحدًا.

صعدتُ بعدها، وأوصلتُها إلى بابِ غرفتها. عانقتني ودخلت غرفتها، ثم عدتُ إلى غرفتي بجسـدٍ مثقل. رميتُ بنفسي على السريرِ وغطستُ في نومٍ عميقٍ، لا حلم فيه ولا مشاكل.

قوّيـتُ علاقتـي برانيا خلال هذا المهرجان، حيـث خرجنا عدة مراتٍ لزيارة بعض معالم دبي، ولكن ظلت فريشتا جزءًا مهمًا من حديثنا.

مـن حـينٍ إلى آخـر، أتذكر جزئيةً ما مـن قصة (فريشـتا) وهروبها من طهران بعد زواجٍ فاشلٍ وظروفٍ قاسيةٍ دفعتها إلى هذه المدينة وتورطها في هـذا العمل، رغبتها بجمع مبلغٍ من المال لتعود إلى مدينتها لتتطهر وتفتح صفحـةً جديدةً، إما أن يسـاعدها الحظ أو أن يكـون قاتلها هو هذا الجني الماكر الذي يُسمى أبو كيس.

تمازحنـي (رانيـا) وتتصل بي أحيانًا، وتقول معك (فريشـتا)، أعجبها الاسم، فطلبت مني مناداتها فريشتا.

رانيـا، امـرأةٌ قويةٌ ومجربةٌ في الحيـاة وصدماتها، تسـعى لتحقيق بعض أهدافها وخاصة النجومية في التمثيل.

شـجعتني عـلى كتابـة قصة (أبـو كيس) منـذ لقائي الأول بـه في بيت المخاوية، ثم دمجها مع قصة فريشـتا بكل تفاصيلها. وعلى الرغم من أنني لا أملـك قصة فريشـتا كاملـة، إلا أنني أتذكر أحيانًا بعـض ما قالته لي في ليلة الفودكا.

انتهـى المهرجـان وعدنـا إلى باريـس، وودّعـتُ (رانيـا) وعـدتُ إلى النورماندي، وبقينا في تواصلٍ جيدٍ.

ليلة نويل 2010، كانت إحدى الليالي التي لا يمكن نسيانها.

تلقيتُ اتصالًا من (رانيا) قبل غروب الشمس، كان صوتها مذعورًا

وهي تردد عباراتٍ متقطعةً: عليه العمى، أبو كيس، أحميني منه، رأيته قبل قليلٍ بلباسه الكاكي وكيسه ونظر لي، تعال واحميني منه، أنا قادمة الآن، انتظرني بالمحطة.

أغلقتُ الخط.

حاولتُ التواصل معها بعدها، وبعد مضي ساعةٍ، أرسلت لي صورتها وهي على متن القطار القادم من باريس.

خرجتُ سريعًا لشراء مشروبٍ وبعض الأشياء، عدتُ لترتيب البيت، وصلتني منها رسالة تطلب عنواني، أرسلتُ لها بالعنوان ثم اتصلتُ بها لأتأكد مما إذا كانت وصلت، لم ترد. خفتُ بأنها غضبت لأنها لم أنتظرها في المحطة.

فجأةً دقَّ جرسُ الباب، هرعتُ لفتحه، فتحتُ الباب، حقًا هي، دخلت سريعًا، أخرجت من حقيبتها قنينة فودكا واندفعت تعانقني وتتشبث بي وهي تردد: احميني من هذا الجنّي، أبو كيس.

القط بوبا

تقسم (كارين) أغلظَ الأيمان بأن قطَّها (بوبا) ليس قطًا عاديًا وأنه يحمل روحَ (أمير)، وربما قائدًا عسكريًا محنكًا ولكنه طيبُ القلب ومحبٌّ للجمال، لذلك فهي لا تعامله معاملة القطط العادية وتجلب له أفضلَ أنواع المأكولات والألعاب.

أخذته إلى بيتِ أمِّها حيث يتميز البيتُ بحديقةٍ كبيرة. هنا تأكدت من صدق حدسها. شعرَ (بوبا) بالسعادة وبدأ يمارس الصيدَ كهوايةٍ جديدة، وهو يتعففُ عن قتل الفئران وأكلهم، أخافهم وأجبرهم على ترك منزل أمِّ كارين. فرحت (الأم) بتخلصها من جيشِ الفئران الذين كانوا يقلقون منامها ويفتكون بكل شيء.

تجلس (كارين) مع (قطها) وتتحدث إليه، تترجاه ألا يقتل العصافير، وتبكي كلما شاهدت جثة عصفورٍ أو طائرٍ صغيرٍ ملقاةً بالحديقة. لم يكن (بوبا) يأكلها، يكتفي بالصيد والقتل ويترك الضحية للدود. كل يومٍ تقوم (كارين) بحفر قبرٍ وتصلي على العصفور المقتول وتدفنه. أختها تسمي الجزء الشرقي من الحديقة «مقبرة العصافير».

تعرفتُ على (كارين) واشتركنا في أعمالٍ فنية. بدأت تطلب مني أن أوصلها إلى بيتها. كنتُ أوصلها إلى بوابة العمارة وأذهب، ولم أظن أن علاقتنا ستتطور وتتجاوز كل الحدود.

تعجبني قصصها عن قطّها (بوبا)، ولكثرة هذه القصص تشجعتُ وطلبتُ منها رؤيته.

وافقت بفرح، تحركنا إلى بيتِ أمِّها، لم تكن أمُّها في البيت، كان (بوبا) في الحديقة. نادته وجاء يركض ويدور حولها، تعلق بها، أخذته، أنزوى في صدرها، يحرك رأسه برفقٍ ليلامس نهديها.

قلتُ لها: إنه أميرٌ ماجنٌ ويعرف الأماكنَ الأنثويةَ الحساسة.

نظر إلي، ثم تحرك وانسحب تاركًا صدرها وغادر إلى جهة الحديقة.

بعد مغادرته، عانقتني عناقًا مختلفًا، وظلت مبتسمةً وقالت: أنا سعيدةٌ بهذا اللقاء مع بوبا. همس لي بأشياءَ كثيرةً ستكون بيننا.

قلتُ: تقصدين أعمالًا فنيةً مشتركةً؟

ضغطت على شفتيها السفلى بأسنان فكها العلوي للحظات، ثم غمزت بعينها اليمنى، وضربتني ضربةً خفيفةً على صدري وقالت: أنتَ تفهم كل شيءٍ وتتظاهر بالسذاجة.

حقيقـةً، لا أدري مـاذا أقـول لها، لسـتُ خبيرًا في سـلوكيات القطط. دعوتهـا للخـروج والتجـول قليـلاً، رحبـت بالفكـرة، خرجنـا للتجول وتناولنا طعام العشاء، وعدتُ لمرافقتها إلى بيتها.

بقينـا نتحـدث عن أشـياءَ كثـيرةٍ، أخبرتنـي أن الرقص جعـل لحياتها مسـاراتٍ جديـدةً ومثـيرةً. تـرى أن الرقص لغةٌ إنسـانيةٌ مثـيرةٌ للخيال، مطهرةٌ للنفوس. إنه صلاةٌ وشعرٌ وفنٌ ومتعةٌ مشتركةٌ للراقص والمتفرج.

أوصلتهـا إلى قـربِ بيتهـا. طلبت منـي الصعود لتناول الشـاي، فهي تحب الشـاي الأخضر وتشـتري أجود الأنواع. تعده ببرادٍ خاص وتقدمه في فناجينَ صغيرةٍ أنيقةٍ.

كثـيرًا مـا تـردد بأن حواء هي مكتشـفة الشـاي، وتـارةً تقول إنـه نبتةٌ فردوسـيةٌ أنيقـةٌ، وأحيانًـا تبكي وتقول إن قاطفات الشـاي كلهن نسـاءٌ يعملن لساعاتٍ طويلةٍ ويبذلن جهدًا خارقًا من أجلنا نحن الذين نتناول الشاي في المقاهي المريحة أو في بيوتنا ولا نعرف قصة هذا الكفاح العظيم.

في كل لقاء، يكون (بوبا) والحديث عنه شيئًا مهمًا يأخذ وقتنا.

قالـت: أنا أدعوك إلى بيتي هنا مخافة أن يغضب بوبا، ولتعلم أنك أول رجلٍ يدخل هنا منذ أن استأجرت السكن قبل أربع سنوات، لم يمسسني بـشرٌ، كنـتُ فقـط لبوبـا والآن أفتقـده، لكنـه هنـاك بخيرٍ، وجـد مملكته

وهواياته. أنا لست راضيةً عن قتله للطيورِ الصغيرةِ البريئةِ، لكنها جزءٌ من سنة الطبيعة. أشتري له طعامًا لذيذًا وخاصًا، لكنه يفضل أن يصطاد. ليته يصطاد باليوم عصفورًا واحدًا ويأكله كله، أخافُ أن يسرف في القتل وتزداد شراهته.

أدهشتني ذات ليلةٍ بقولها إنّي أشبه (بوبا)، وأن الروح التي حلت في جسدي هي روح شاعرٍ أو فيلسوفٍ. كنتُ أجدها تبالغ ولم أكن أرى ما أكتبه شعرًا أو نثرًا، أكتب هذياناتٍ ثم أمزقها أو أمسحها.

بدأت تبحث عن التشابهات بيني وبين (بوبا)، وتقول إن عينيّ فيهما سحر خاص، وتدعي بأني سأنجح في قول الشعر، وتؤكد بأن (بوبا) يحمل روح أميرٍ، وأني أحمل روح شاعرٍ وفنانٍ، وأني سأصل ذات يومٍ وأنشر كتبًا وأشياءَ كثيرةً. أحيانًا تقول إن بوبا يخبرها عني.

تعددت وكثرت حواراتنا ولقاءاتنا لعدة أشهر، حدث ما خططت له (كارين)، في ذات ليلة شتويةٍ تعشينا في بيتي، دعوتها للبقاء إن أحبّت، فقبلت.

جاءت محملةً ببيجاما، وكان لدي فرشاةُ أسنانٍ جديدةٍ ومناشفَ نظيفةٍ.

حـدث كل شيءٍ بسرعةٍ، كسرنـا حواجزَ لم نكن نظن أننا سـنهدمها، لبّينا نداءَ ثورةِ رغباتنا وذهبنا معًا لنبحث عن منتهى اللذة.

فعلناهـا تلـك الليلة، وفي الليلـةِ الثانيةِ والثالثـةِ، ولم نكن نتحدثُ عما نفعله من الملذات. انغمسنا أكثر وأكثر لمدة ثلاثة أشهر، نقتطف من الليلِ عناقيدَ اللهو ونسرقُ من النهار ساعةَ القيلولة لفعل ما نفعله في الليل.

قللـت زيارتهـا لبيـت أمها والحديـث عن (بوبـا)، وحتـى قللت من مهاتفة صديقاتها المقربات.

بعد أكثر من ثلاثة أشهر، وبعد أن فعلنا اللذة لأكثر من مئة مرةٍ، بدأت تسـألني عـما نفعله وكيف أحـبُّ أن تتصرف معي، وتسـألني عن الأمور الأكثر إثارةً ورؤيتي لبعض القضايا بخصوص العلاقات الحميمية.

استمرت علاقتنا، ثم تركتني ورحلت بهدوءٍ.

في آخرِ لقاءٍ، زارتني، تناولنا الغداء.

قالت: كانت لياليا وأيامنا جميلةٌ، ولكن لكل شيءٍ نهايةٌ، وأنا سأعود لرعاية بوبا.»

عـادت تتحدثُ عن بوبا، الأمير اللطيف، وأن علاقتنا جعلتها تنسـاه وتهمله، فتحول إلى الوحش المفترس للعصافير والطيور الجميلة والبريئة.

ينتقـل ويقفز فوق الجدران وحدائق الجيران ويذهب إلى الغابة، يسرف في القتـل، ولا يسـتريح، وأحيانًا يغيب ليومٍ كاملٍ، وبعـد ذلك يعود بصدرٍ ملطخٍ بدماء ضحايا أبرياء.

بكـت وهي تقول: «أفهمني، أرجوك... علينا أن نفترق، لا يمكن أن نبني سعادتنا على تعاسة العصافير.

لا شيء

أُقتنِعتُ بعد مكابرةٍ كبيرةٍ، وبعد أن قضيتُ أكثر من ثلاثِ ساعاتٍ في فعلِ اللاشيءِ أن النتيجةَ ستكون لاشيء. يأتي صوتٌ من الفراغِ المحيطِ بي وداخلي ويهمسُ لي: ليس بمقدورك أن تكتبَ كل يومٍ وتنجزَ شيئًا مهمًا، بعضُ الساعاتِ والأيامِ قد تكون لاشيء، حتى القراءة قد تعجزُ عنها.

ربما لأنها تُمطر، الشوارع فارغةٌ ولا أحد يقدرُ أن يدخن بالخارج، وحتى الأشجارِ ترتعشُ، ربما لأن المطر لم يتوقف منذ ثلاثةِ أيامٍ. من عاداتِ الأشجارِ أنها ترقصُ ولا تملُّ من الرقصِ، لا تبحثُ عن معاطفَ أو مظلاتٍ ولا القبعاتِ السخيفةِ.

لا صدورٍ عاريةٍ، كان من المتوقعِ أن تتظاهرَ فتياتٌ جميلاتٌ بصدورهن العاريةِ، وبسبب هذا الطقسِ لم يحدث شيءٌ، ويقالُ إن (تيسليت) زوجةُ (أنزار) إلهِ المطرِ سئمتْ من هذا البللِ الذي يصيبُ هذه المدينة. خلعتْ (تيسليت) ملابسَها الفاخرةَ وانزوتْ بزاويةٍ ضيقةٍ وهي تلبسُ معطفَ المطرِ الأصفرِ، يحاولُ (أنزار) أن يدفعَ السحبَ الداكنةَ الثقيلةَ إلى شعوبٍ ومدنٍ تتضرعُ إليه من أجلِ قطراتِ مطرٍ. يحاولُ أن يسحبَها لتغادرَ سماءَ هذه المدينةِ المرتعشةِ، تخورُ قواه ويعودُ ليجدَ سقفَ بيتهِ يقطرُ. يشيخُ

وجهُ (تيسليت) بعد أن ذبلتْ ورودٌ وأزهارٌ حديقتها، وربما بسببِ البللِ أصيبتْ بحساسيةٍ جعلتها تنزعُ كلَّ زينتها، وتنسى تحضيرَ الشوربةِ الساخنةِ.

تتزاحم الصور والمشاهد في رأسي، مع ذلك أظل لا أفعل شيئًا. لم أستطع كتابةَ شيئًا، يتمدد الفراغُ والصمتُ ليبتلع الأرصفةَ والحاناتِ. هنا أتذكر عبارةً التصقت في رأسي، يُقالُ إن ملاكَ الموتِ يزورُ كلَّ صباحٍ البيوتَ والشوارعَ وينظرُ في الوجوهِ ثم ينصرفُ.

أسيرُ نحو حانةٍ تبدو قديمةً، تُدعى (رصيف البرقوق). أستعيدُ تذكرَ المقولةِ وأدخلُ الحانةَ، ثم أطلبُ كأسًا من نبيذِ بوردو.

تبتسمُ لي نادلةٌ جميلةٌ ذاتُ وجهٍ مدورٍ ومتناسقٍ. أحدقُ فيها وأتأملُ تنورتَها القصيرةَ وصدرَها الذي يعلنُ عن نفسه. كلُّ شيءٍ يظهرُ في جسدها متناسقًا وبديعًا ويستحقُّ أن يكونَ قصيدةً.

(هنا يدخل (رجل) بهيئةٍ غريبةٍ، يظلُّ يحدقُ في وجوهنا والمكانِ.

يتوقفُ أمامَ (النادلة) ويسارعُ بكتابةٍ شيءٍ ما بدفتره الذي يحملهُ بيدهِ اليسرى.

يتوجهُ (الرجلُ) إلى إحدى الطاولاتِ حيث يجدُ عليها نصفَ كأسٍ من النبيذِ، يلتقطهُ، يبتلعهُ دفعةً واحدةً ثم يسرعُ بالمغادرةِ ويختفي أثرهُ بعد عدةِ ثوانٍ.

أستعيدُ تذكرَ مقولةِ «تجول الموت».

أشعرُ بجسدي يرتعشُ بينما تحافظُ (النادلة) على ابتسامتها. تعبثُ بشعرها الأشقرِ اللولبي، تعضُّ على شفتيها العليا وتبلعُ ريقها. ثم تأتيني بكأسِ النبيذِ، يبدو وجهُها مشرقًا.

تزدادُ ابتسامتها وهي تضعُ كأسي على الطاولةِ، تهزُّ رأسها، وتخاطبني:

لا تهتم لما حدث. تحدثُ هنا أشياءُ غريبةٌ منذ هطولِ هذا المطرِ السرمدي الذي يبدو سيستمرُّ لشهرٍ وربما أكثر. هذا هو طقسُ ومناخُ النورماندي وعجائبُه.

أحاولُ أن أبلعَ ريقي، وكأني سأخبرها أن هذا ربما يكونُ (ملاكَ الموتِ) أو أحدُ أعوانه، ولم أكن أظنه يتجولُ في الحاناتِ ويشربُ بقايا كؤوسِ النبيذِ. في اللحظةِ الأخيرةِ أمسكتُ لساني وبقيتُ أحاولُ أن أبتسمَ وأبحثُ عن كلمةٍ أو عبارةٍ مهذبةٍ تطمئنها، فالحانةُ فارغةٌ والصمتُ يأكلُ كلَّ ركنٍ وجدارٍ.

بعد محاولاتٍ، ها أنا أبتسمُ وأبذلُ جهدًا كبيرًا كي أزيلَ الجمودَ الذي يضعُ وجهي في صندوقٍ حديديٍ مكعبٍ. بقيتُ ألتفتُ يمينًا ويسارًا للبحث عن مرآةٍ كي أرى حالتي. أحاولُ هزَّ رأسي بصعوبةٍ، وعبارةً متلعثمةً قلتُ لها:

«ربما تشرقُ الشمسُ غدًا.»

حالة

الليـلُ أبونـا يُرضعُنـا مـن سـكونه صخبًـا مسـكرًا. تـأتي اللحظات الاسـتثنائية، أفكـرُ فيـكِ بعمـقٍ، أفكـرُ وأفكرُ، أحتـاجُ لبعـض الوقت. سـأعرجُ إلى هـذا السـقفِ القريبِ من السـماء بمكنسـتي الكهربائية عند وجـعِ الليل الأخير، أجمعُ هكتـارًا من النجومِ قبل نومها، أضعُها حفنةً في فنجانٍ صغيرٍ أذيبُها وأخضبُ كفكِ الأيمن.

أنظرُ في هذه المرآةِ التي كانت ترسمُنا في صباحاتِ العناق؛ أودُّ اختراقَها للوصـولِ إلى الضفـةِ الأخرى، عالمها الميتافيزيقـي، بعض ما تحتفظُ به من حكاياتِنـا ومداعبتِنا المسـائية. أهبطُ إلى الجحيمِ، تغرينـي شرارةٌ صغيرةٌ، أصعدُ مسرعًا في تلك اللحظةِ التي تمسكين فيها سيجارتكِ النحيفةَ وهي ترتجفُ من البرد.

أنتِ ترتعدين من الخوف، أنا هنا في حالةٍ لا توصف، لنشـتعلَ جميعًا. خذي نفسًا عميقًا مني، انفثيني سحابةً هزيلةً ترحلُ إلى العدم.

أجمعُـكِ مـن الأشـياءِ الصغـيرةِ التـي تركتِهـا، أعيشـكِ، أحسـكِ أوكسيجيني أستهلكه باقتصادٍ أخافُ أن يتأكسد.

لا أدري هل تحتفظين بشـميزي البـالي المبقعِ برائحتـي؟ كان يُعجبكِ لبسه، تتورعين عن غسله، تودين أن نمتزج معًا بكل ما حولنا؛ في الأشياء الصغـيرة والكبيرة، تفضلين أن نشرب مـن كأسٍ واحدٍ، كانت لنا ملعقةٌ واحدةٌ وسكينةٌ واحدةٌ، مخدةٌ واحدةٌ. من الصعب نسيان طقوسنا البدائية، ندقُّ مسمارنا في أسنانِ أسطورةٍ لم تُكتب بعد.

ليكـن مسـتوى عشـقنا صفـرًا فقـط، سـأكون فرحًـا بهـذه النتيجـة، فالمساحات بين الصفر والواحد لها قيمتها الحسابية.

عاجـزٌ عن فهم أن الفعل الماضي لا يعودُ حيًا وحاضرًا. ربما يكتشـفُ علماءُ اللغة شـيئًا اسـتثنائيًا أو نخلقُ نحن هذه المعجزة. لا أدري هل يجوزُ لي التـمادي أكثـر بعزةِ إثم الكتابـة؟ الليلُ قلقٌ يتابـعُ أخبارَمرض فيروس الإيبولا وداعش.

أنـا هنا أخيطُ مظلةَ هذه الهلوسـة، يبعثرني هذا الهيجـانُ المنجرفُ مع شلالاتِ وادي بنا، ربما تحلقين بجناحٍ وحدكِ في البعيد.

ديونيسوس

فعلها (ديونيسوس)، إلهُ الخمرِ، بعد سباتٍ عميقٍ، ها هو ينهضُ، يجدُ نفسهُ عاريًا تمامًا في كهفٍ مظلمٍ والترابُ على وجهه وجسده، ينفضُ كلَّ هذه الأتربةِ والأوساخِ، يخرجُ من كهفه بجيلٍ شاهقٍ لا حياةَ فيه، يرتعشُ جسدهُ من هذه البرودةِ وغيابِ الشمسِ، يحركُ يديه ثم يرى صقرًا جبليًا يميلُ لونهُ إلى الرماديِّ وتبدو أرجلهُ صفراءَ، يتأملُ ديونيسوسُ هذا الصقرَ الذي يمدُّ جناحيه وكأنه ينتظرُ عشيقته، يفهمُ أنه في نهايةِ شهرِ فبراير وبدايةِ موسمِ الحبِّ والتزاوجِ للصقورِ وهذا الصقرُ ربما يتمرنُ لينشطَ قواهُ الجنسيةَ أو يتدربُ على أغنيةٍ غراميةٍ ليغري عشيقته.

يتحسسُ (ديونيسوس) جسدهُ ويدركُ من يكونُ وأنه إلهُ الخمرِ والنشوةِ، يحركُ ذراعيه ليطيرَ ويعودَ إلى ملكوتهِ ويستعيدَ قداستهُ، لكنه يفشلُ حتى في القفزِ لمترٍ واحدٍ ويشعرُ بجوعٍ غريبٍ، ينظرُ إلى الصقرِ الشابِّ والقويِّ وهنا تأتيه فكرةٌ أن يستعيرَ جناحَ هذا الطائرِ ويتغدى بلحمهِ، ولكنه يشعرُ بالضعفِ ليصطادَ هذا الكائنِ الشرسِ، يتأملُ السماءَ وكأنه ينادي الآلهةَ الصديقةَ والشريكةَ، لكن السماءَ داكنةٌ وكأنها فارغةٌ.

يجلسُ ليفكرُ ويتذكرُ الزمنَ الماضيَ وتهطلُ في رأسه صورٌ ومشاهدُ من الاحتفالاتِ الريفيةِ التي كانت تقدسهُ وتذبحُ له القرابينَ وترقصُ له أجملَ الفتياتِ البكرِ وما كان يمنحهُ للكونِ من نشوةٍ ولذةٍ وأشعارٍ، ويسألُ:

ـ كيف يمكنُ أن أستعيدَ مجدي وقداستي؟ وكيف حالُ الشعرِ والفنِّ بدونِ خمرٍ ونشوةٍ؟

يهمسُ بصوتٍ خافتٍ:

ـ كلُّ روائعِ الحضاراتِ وفنونها أنتجها الخيالُ، وكنتُ أنا ديونيسوسُ من يمدُّ الإبداعَ الإنسانيَّ بالنشوةِ والحلمِ.

لم يكن يتصورُ نفسهُ أن يكونَ صيادًا أو وحشًا، لكنه يحاولُ أن يقنعَ نفسهُ بأن الضرورةَ تبيحُ المحظوراتِ.

مئاتٌ من الأفكارِ تتصارعُ في رأسه المتعبِ، فهو يريدُ أن ينقذَ الكونَ من التفاهةِ وجمودِ الخيالِ. ولكي يحدثَ ذلك، عليه أن يعودَ الإلهَ القويَّ وليس الكائنَ الضعيفَ الجائعَ.

يهمسُ لنفسه:

ـ قتلُ وأكلُ هذا الصقرِ لهدفٍ نبيلٍ.

يحاولُ أن يقنعَ نفسهُ وأن يفعلها.

يظلُّ يفكرُ ويهتدي لفكرةٍ لطيفةٍ حيث يقتربُ من الصقرِ ويسأله:

ـ يمكنني أن أساعدكَ فأنا ديونيسوس، إلهُ الخمرِ والنشوةِ والخيالِ.

يتراجعُ الصقرُ خطواتٍ حذرةٍ إلى الوراءِ ويردُّ:

ـ ديونيسوس، إلهُ الخمرِ والنشوةِ والخيالِ، سمعتُ بأساطيرَ وحكاياتٍ عنكَ من آبائي وأجدادي ولكن غيابكَ لسنواتٍ طويلةٍ أحدثَ بالكونِ كوارثَ كثيرةٍ فلم تعدْ للنشوةِ مذاقُها وللخيالِ سحرُه وأغلبُ ما يقالُ ويُكتبُ ويتمُّ إنتاجه يخلو من روحِ الإبداعِ وهأنا منذُ أيامٍ هنا وأجدني عاجزًا عن أن أبدعَ أغنيةً أغري بها عشيقتي وأخافُ أن يفوتني موسمُ التزاوجِ.

يبتسمُ ديونيسوسُ ويبدأُ يخطو خطواتٍ هادئةٍ نحو الطائرِ العاشقِ:

ـ حسنًا، أشعرُ بجمالِ روحكَ وسوف أباركَ لتكونَ أعظمَ شاعرٍ ومبدعٍ لتكسبَ مئةَ عشيقةٍ إن أحببتَ... هذا يومُ حظكَ الأنيقِ.

يتجمدُ الصقرُ في مكانه ثم يُصدقُ ما يسمعهُ، كأنه الآن يشاهدُ الحسناواتِ من الإناثِ يستعرضنَ جمالهنَّ ليختارَ ما يشاءُ منهنَّ ويتلذذُ، وهنا يُسرعُ للتقربِ من ديونيسوس، كانت أقلَّ من لحظةٍ خاطفةٍ فإذا برقبةِ الصقرِ بين فكي هذا الإلهِ.

فعلها (ديونيسوس)، وها هو يتلذذُ بمصِّ دمِ العاشقِ، هذا الدمُ الساخنُ والساحرُ، سرعانَ ما أحدثَ تأثيراتٍ غيرَ متوقعةٍ، لم يكترث ديونيسوسُ بقداستهِ وصفاتهِ الألوهيةِ وتعاملَ مع جسدِ الصقرِ العاشقِ كوحشٍ.

أكلَ اللحمَ وشربَ الدمَ ولبسَ الريشَ والأجنحةَ، الآن يشعرُ بقوتهِ وعظمتهِ ويضربُ على صدرهِ ثم يطيرُ إلى السماءِ الأولى، يجدها فارغةً فلا حرسَ ولا ملائكةَ ولا مخلوقاتٍ سماويةٍ، هنا يحركُ يديه وينفثُ بفمهِ فتعودُ الروحُ إلى الريحِ والتي تسارعُ لتسجدَ له وتذعنُ بالطاعةِ والخضوعِ، يلطمُ خدَّها بقسوةٍ ويصرخُ فيها:

ـ أريدُ أن تحلَّ بالكونِ ريحٌ عاصفةٌ وأريدُ عواصفَ مخيفةً تبشرُ بانقلابٍ كونيٍ وعودتي أنا ديونيسوس، إلهُ النشوةِ والخمرِ والإبداعِ، أيتها الريحُ أهدمي كلَّ الأبراجِ الأسمنتيةِ الفاخرةِ والخاليةِ من الخيالِ وأطمسي كلَّ المدنِ التي لا تقدسُ الفنَّ والشعرَ والإبداعَ، يجبُ أن نعيدَ هيكلةَ هذا الكونِ وننقيهُ من التفاهةِ والغباءِ.

يتأملُ ديونيسوسُ ما حوله فلا يجدُ إلا الفراغَ والضياعَ، هنا يصرخُ ليستدعي السحبَ، جاءت فارغةَ البطنِ وسرعانَ ما نفخَ في بطونها بالنبيذِ والخمرِ المعتقِ وأمرها أن تبللَ الكونَ وتسقيَ الأرضَ بما تحملهُ.

كنـتُ الكائـنَ الضائعَ الباحثَ عن العشـيقةِ التي لم تعـدْ تأتي كعادتها بالسابعةِ مساءً، كانت تدخلُ متعرفةً وتشتاقُ إلى قبلاتي، ترتمي في حضني وتشمُّ رائحةَ خمري ونبيذي ورائحةَ التبغِ، كنتُ أحاولُ أن أخدعَ عشيقتي برائحةِ البخورِ اليمانيِّ والشـموعِ المعطرةِ، وهذيانـاتي، تلك القصائدِ التي تجعلُ العشيقةَ كالماءِ وأنا الترابُ فنمتزجُ لنكونَ طينًا.

كنتُ أكثرَ الكائناتِ فرحًا بعودةِ ألوهيةِ ديونيسوس، ها هي تمطرُ نبيذًا وخمرًا، أنا الكائنُ الذي يحلمُ أن يكونَ شاعرًا، هنا بهذه المدينةِ النورماندية قـربَ المحيـطِ والبحـرِ والتي لا تبعدُ كثـيرًا عن الجبلِ، كنـتُ أبحثُ عن مهيـجِ لأحلامـي التي أصابهـا البردُ، قرأتُ عـن الآلهةِ القويـةِ التي تقوي الخيـالَ وتخلقُ لأحلامنا أجنحةً وسـمعتُ بمحبسِ ديونيسـوس وفقدانهِ القوةَ والقداسةَ.

تُمطـرُ الآن بمدينتـي، تُمطـرُ خمرًا ونبيـذًا معتقًـا، تفوحُ رائحـةُ الورودِ الزرقـاءِ وأسـمعُ الآن صيحـاتِ النـوارسِ، ها هي الشـمسُ تسـيرُ ثملةً وتكشفُ عن صدرها وترفعُ فستانها الخفيفَ إلى نصفِ فخذيها.

أهـزُّ رأسي وأهـرعُ للكتابـةِ وأشربُ، أشربُ مـن هذا المطـرِ النبيذيِّ الخمـريِّ، أترنحُ وأهذي، الآن يمكنني أن أكتبَ قصيدةً غزليةً وأسـتعيدَ عشيقتي، أستعيدُ كلَّ شيءٍ، أستعيدُ ذاتي كشاعرٍ وأرتمي في بركةِ الخيالِ.

يقهقهُ ديونيسوسُ وهو يستعيدُ كلَّ قوتهِ، ها هي تمطرُ نبيذًا وخمرًا، تعودُ للطبيعةِ حياتُها وألوانُها وتعودُ خيالاتي لتنهضَ من جديدٍ، أبحثُ عن العشيقةِ والكلماتِ، أخلقُ قصيدتي الأولى بعد سنواتٍ من الجفافِ والجمودِ، يتحركُ قلبي لتنبتَ فيه الزهورُ، أشمُّ روائحَ التينِ والزيتونِ والبخورِ، أخرجُ إلى الشارعِ المبتلِّ وأتأملُ ضرعَ السماءِ المتدفقِ بالمطرِ.